مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ

جمعٌ وترتيبٌ

مِنْ خُطَبِ وَمُحَاضَرَاتِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ:

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدٍ رَسْلَانَ

حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

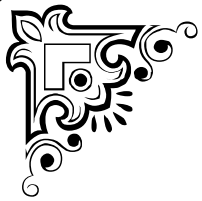

تَزْكِيَةُ النَّفْسِ سَبِيلُ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاحِ

فَإِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا أَقْسَمَ سَبْعَةَ أَقْسَام مُتَوَالِيَةٍ عَلَىٰ قَضِيَّةٍ هِيَ قَضِيَّةُ الْعُمُرِ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِنْسَانِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩- ١٠].

وَأَقْسَمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالْخَلْقِ وَالْخَالِقِ، فَأَقْسَمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالشَّمْس وَضُحَاهَا، وَبِالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَبِاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَأَقْسَمَ بِالسَّمَاءِ وَبَانِيهَا، وَالْأَرْض وَطَاحِيهَا، وَأَقْسَمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالنَّفْس وَمَا سَوَّاهَا، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، فَهَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، وَهِيَ الْقَضِيَّةُ الْأَخْطَرُ فِي حَيَاةِ كُلِّ إِنْسَانٍ؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَيَّنَ أَنَّ الْفَلَاحَ مَرْهُونٌ بِهَا وَأَنَّ الْخَيْبَةَ وَالْخُسْرَانَ فِي مُجَانَبَتِهَا، وَأَنَّ مَنْ زَكَّا نَفْسَهُ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ.

فَأَقْسَمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هَذِهِ الْأَقْسَامَ عَلَىٰ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْعُظْمَىٰ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَالَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ نَجَاحِهِ وَخُسْرَانِهِ، وَعَلَىٰ مَدَارِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ تَكُونُ سَعَادَتُهُ دُنْيَا وَآخِرَةً.

وَالتَّأَمُّلُ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض يَزِيدُ الْإِيمَانَ، يَزِيدُ تَزْكِيَةَ النَّفْس، يَزِيدُ الْمَرْءَ قُرْبًا مِنَ اللهِ وَخُشُوعًا لَهُ، وَإِنَابَةً وَإِقْبَالًا عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

*** بَعْضُ وَسَائِلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ:**

وَمِمَّا تَزْكُو بِهِ النَّفْسُ وَيَزِيدُ بِهِ الْإِيمَانُ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، وَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَوْصُولَةً وَجَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِهَذِهِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي افْتَرَضَ عَلَيْنَا وَالَّتِي نَدَبَ إِلَيْهَا نَبِيُّنَا ﷺ، جَعَلَ لَهَا مَرْدُودًا فِي تَزْكِيَةِ النَّفْس وَفِي تَطْهِيرِهَا وَبُعْدِهَا عَمَّا يُشِينُهَا دُنْيَا وَآخِرَةً.

فَرَضَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الصَّلَاةَ، وَبيَّنَ لَنَا أَنَّهَا تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ؛ لِأَنَّهَا صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، فَمَنْ أَحْسَنَ الصَّلَاةَ فَقَدْ حَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَإِسْلَامُ الْمَرْءِ عَلَىٰ قَدْرِ صَلَاتِهِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ إِسْلَامَهُ، وَأَنْ يَتَيَقَّنَ مِنْ حَقِيقَتِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ صَلَاتِهِ، فَعَلَىٰ قَدْرِ صَلَاتِكَ يَكُونُ إِسْلَامُكَ.

وَفَرَضَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الصَّدَقَةَ؛ تَطْهِيرًا وَتَنْمِيَةً وَتَزْكِيَةً لِلنَّفْس.

وَفَرَضَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الصِّيَامَ؛ لِتَحْصِيلِ التَّقْوَىٰ -وَالتَّقْوَىٰ: فِعْلُ الْمَأْمُورَاتِ وَتَرْكُ الْمَنْهِيَّاتِ وَالْمَحْذُورَاتِ- وَلِيَتَعَلَّمَ الْمَرْءُ كَيْفَ يَكُونُ زِمَامُ قَلْبِهِ وَرُوحِهِ وَنَفْسِهِ بِيَدِهِ حَتَّىٰ لَا تُصَرِّفَهُ النَّفْسُ فِي أَهْوَائِهَا، وَحَتَّىٰ لَا تَمْضِيَ بِهِ النَّفْسُ عَلَىٰ شَهَوَاتِهَا، وَإِنَّمَا يَكُونُ مَالِكًا لِنَفْسِهِ.

وَمَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ بِشَيْءٍ إِلَىٰ اللهِ بِمِثْلِ كَلَامِهِ، الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ، وَكَلَامُ اللهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَكَلَام النَّاس كَالْفَرْقِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، فَمَنْ قَدَّرَ الْقُرْآنَ قَدْرَهُ، وَمَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فَأَشْبَعَ بِهِ قَلْبَهُ وَنَفْسَهُ زَكَّاهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

إِنَّ مِمَّا يُزَكِّي بِهِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنِ الْمَعَاصِي، وَأَنْ يَفْعَلَ الْحَسَنَاتِ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي جَلْبِ الطَّاعَاتِ، مُخْلِصًا لِرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَأَنْ يَجْتَنِبَ السَّيِّئَاتِ، فَهَذِهِ كُلُّهَا أُمُورٌ يُزَكِّي بِهَا الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ.(*).

*** أَعْظَمُ طَرِيقٍ إِلَى تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ: تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ:**

وَأَعْظَمُ طَرِيقٍ وَآكَدُهُ إِلَىٰ تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ، «قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧].

قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ: الزَّكَاةُ هَاهُنَا هِيَ التَّوْحِيدُ، شَهَادَةُ أَنْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَالْإِيمَانُ الَّذِي بِهِ يَزْكُو الْقَلْبُ؛ فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ إِلَهِيَّةِ مَا سِوَىٰ الْحَقِّ مِنَ الْقَلْبِ، وَذَلِكَ طَهَارَتُهُ، وَإِثْبَاتُ إِلَهِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ زَكَاةٍ وَنَمَاءٍ»(١).

فَسَمَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْآيَةِ التَّوْحِيدَ زَكَاةً، كَمَا وَسَمَ سُبْحَانَهُ الشِّرْكَ بِالنَّجَاسَةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «التَّوْحِيدُ أَلْطَفُ شَيْءٍ وَأَنْزَهُهُ وَأَنْظَفُهُ وَأَصْفَاهُ، فَأَدْنَىٰ شَيْءٍ يَخْدِشُهُ، وَيُدَنِّسُهُ، وَيُؤَثِّرُ فِيهِ، فَهُوَ كَأَبْيَضِ ثَوْبٍ يَكُونُ، يُؤَثِّرُ فِيهِ أَدْنَىٰ أَثَرٍ، وَكَالْمِرْآةِ الصَّافِيَةِ جِدًّا، أَدْنَىٰ شَيْءٍ يُؤَثِّرُ فِيهَا».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ «خُطْبَةِ عِيدِ الْفِطْرِ ١٤٣٤هـ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا» - الْخَمِيسُ ١ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٤هـ/ ٨-٨-٢٠١٣م.

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١/ ٧٩).

(٢) «الْفَوَائِدُ» (ص ١٩٤).

وَأَمَّا الشِّرْكُ فَهُوَ أَنْجَسُ النَّجَاسَةِ، وَأَخْبَثُهَا وَأَشْنَعُهَا.

وَالتَّوْحِيدُ زَكَاةٌ، حَيْثُ يُنَمِّي ثَوَابَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَيُبَارِكُ فِيهَا، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ إِذَا تَمَكَّنَ مِنْ طَاعَةٍ مَا، فَكَانَتْ هَذِهِ الطَّاعَةُ خَالِصَةً لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّ أَجْرَهَا عَظِيمٌ، وَثَوَابَهَا جَزِيلٌ.

وَأَمَّا الشِّرْكُ فَهُوَ مُحْبِطٌ لِجَمِيعِ الْقُرُبَاتِ، وَمُوجِبٌ لِلْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

وَالشِّرْكُ أَيْضًا خِذْلَانٌ وَحِرْمَانٌ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]؛ أَيْ مَذْمُومًا لَا حَامِدَ لَكَ، وَمَخْذُولًا لَا نَاصِرَ لَكَ.

*** وَمِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ: مُحَاسَبَتُهَا:**

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(١): «زَكَاةُ النَّفْسِ وَطَهَارَتُهَا مَوْقُوفَةٌ عَلَىٰ مُحَاسَبَتِهَا، فَلَا تَزْكُو وَلَا تَطْهُرُ وَلَا تَصْلُحُ الْبَتَّةَ إِلَّا بِمُحَاسَبَتِهَا، قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ -وَاللهِ- لَا تَرَاهُ إِلَّا قَائِمًا عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ مَا أَرَدْتِ بِكَلِمَةِ كَذَا؟ وَمَا أَرَدْتِ بِأَكْلَةِ كَذَا؟ مَا أَرَدْتِ بِمَدْخَلِ كَذَا وَمَخْرَجِ كَذَا؟ مَا أَرَدْتِ بِهَذَا؟ مَا لِي وَلِهَذَا؟ وَاللهِ لَا أَعُودُ إِلَىٰ هَذَا، وَنَحْوِ هَذَا مِنْ كَلَامٍ(٢).

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (٢/ ٤٧٧ - ٤٧٨).

(٢) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

فَمُحَاسَبَةُ النَّفْس يَطَّلِعُ عَلَىٰ عُيُوبهَا وَنَقَائِصِهَا، فَيُمْكِنُهُ السَّعْيُ فِي إِصْلَاحِهَا».(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَزْكِيَةُ النَّفْسِ وَتَحْرِيرُ الْقُدْسِ» - الْجُمُعَةُ ٢٦ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ ١٤٣٩هـ/ ١٥-١٢-٢٠١٧م.

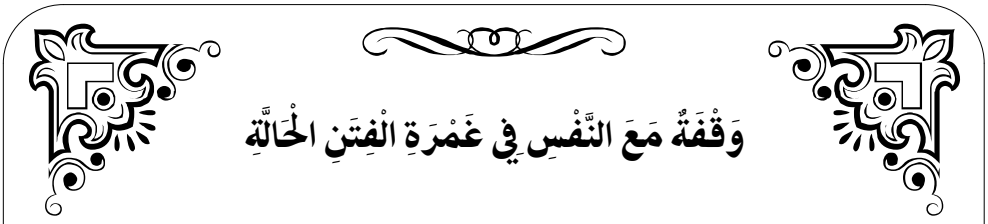

وَقْفَةٌ مَعَ النَّفْسِ فِي غَمْرَةِ الْفِتَنِ الْحَالَّةِ

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ مِمَّا قَدْ عَمَّ شَرُّهُ، وَتَطَايَرَ حَتَّىٰ غَمَرَ شَرَرُهُ، فَعَمَّ الْآفَاقَ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ جَلَّوَعَلَا؛ مَا دَخَلَتْ بِهِ الْفِتَنُ الْحَالَّةُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ، فَزَادَتِ الْقُلُوبَ قَسَاوَةً فَوْقَ قَسَاوَتِهَا، وَتَحَجُّرًا فَوْقَ تَحَجُّرِهَا، وَانْهَارَتِ الْأَخْلَاقُ إِلَّا لَمَمًا، وَصَارَ النَّاسُ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ.

فَكَمْ مِنْ مُنْكَرٍ مَا كَانَ يَأْلَفُهُ، وَكَمْ مِنْ مُعْتَادٍ مَا كَانَ يُنْكِرُهُ، وَلَا يَتَلَبَّثُ عَلَىٰ رَأْسِ طَرِيقِهِ؛ لِيَسْأَلَ نَفْسَهُ إِلَىٰ أَيْنَ أَسِيرُ؟ وَإِلَىٰ أَيْنَ الْمَصِيرُ؟ وَهَذَا شَأْنُ الْفِتَنِ إِذَا حَلَّتْ، فَعَمَّتْ، فَطَمَّتْ، ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ فِي الْقُلُوبِ فَقَرَّتْ.

فَإِنَّهَا لَا تَدَعُ مَنْفَذًا إِلَّا نَفَذَتْ مِنْهُ، وَتَغَلْغَلَتْ فِيهِ، حَتَّىٰ تَسْتَوْلِيَ عَلَىٰ الْقَلْبِ بِشِغَافِهِ، وَحَتَّىٰ يَكُونَ الْقَلْبُ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ فِي غُلَافٍ مِنَ النَّكَدِ مُقِيمٌ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا ارْتَكَبَ الذَّنْبَ نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَمَا تَزَالُ تِلْكَ النُّكَتُ تَزِيدُ، «حَتَّىٰ يَصِيرَ الْقَلْبُ أَسْوَدَ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»(١).

---

(١) جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ: حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الْفِتَنِ، الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِم فِي «صَحِيحِهِ» (رَقْم ١٤٤).

وَمِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ؛ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا، وَمِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ؛ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا.

فَمَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمَ فِي هَذَا الْخِضَمِّ الْهَائِلِ مِنَ الْفِتَنِ -وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ أَمْوَاهُهُ، وَعَلَتْ عَلَيْهِ جِبَالُ مَائِهِ- أَنْ يَتَوَقَّفَ، وَإِنَّهُ لَفِي ظَلْمَاءَ مُدْلَهِمَّةٍ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا!!

مَا أَحْوَجَهُ إِلَىٰ أَنْ يَتَلَبَّثَ قَلِيلًا، وَأَنْ يَنْظُرَ فِي أَطْوَاءِ نَفْسِهِ، وَأَنْ يَتَأَمَّلَ فِي ذَاتِ أَمْرِهِ، حَتَّىٰ يَعْرِفَ مُبْصِرًا أَيْنَ طَرِيقُهُ، وَهَلِ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الرِّيَاحُ الْهُوجُ، فَعَمَّتْ عَلَيْهِ سَبِيلَهُ، وَطَمَّتْ عَلَيْهِ طَرِيقَهُ، فَصَارَ عَلَىٰ غَيْرِ سَبِيلٍ، سَائِرًا عَلَىٰ غَيْرِ طَرِيقٍ، أَمْ أَنَّهُ مَا زَالَ مُهْتَدِيًا بِهَدْيِ رَبِّهِ، مُتَمَسِّكًا بِسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ/ ٥-١٠-٢٠١٢م.

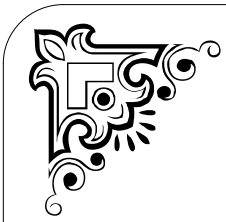

سَعَادَةُ الْمُسْلِمِ فِي التَّوَازُنِ بَيْنَ قُوَّتَيْهِ الْعَمَلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ

إِنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَ الْقُوَّتَيْنِ الْعَمَلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ، يُؤَدِّي إِلَىٰ هَذَا الْهَرْجِ الَّذِي تَرَاهُ فِي الْحَيَاةِ، وَإِلَىٰ هَذِهِ الْفَوْضَىٰ الَّتِي عَمَّتِ السَّاحَتَيْنِ؛ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِبَادِيَّةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ التَّفَاوُتِ بَيْنَ الْقُوَّتَيْنِ.

وَسَعَادَةُ الْمَرْءِ فِي التَّوَازُنِ بَيْنَهُمَا، أَنْ يُوَازِنَ بَيْنَ قُوَّتَيْهِ؛ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، فَمَنْ زَادَتْ قُوَّتُهُ الْعِلْمِيَّةُ عَلَىٰ قُوَّتِهِ الْعَمَلِيَّةِ أَصَابَهُ نِفَاقٌ وَرِيَاءٌ.

وَمَنْ زَادَتْ قُوَّتُهُ الْعَمَلِيَّةُ عَلَىٰ قُوَّتِهِ الْعِلْمِيَّةِ سَارَ عَلَىٰ غَيْرِ طَرِيقٍ، وَوَقَعَ فِي الِابْتِدَاعِ؛ لِأَنَّهُ يَعْبُدُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَمَنْ عَبَدَ اللهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَهُوَ مُبْتَدِعٌ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ الْوَارِدِ كِتَابًا وَسُنَّةً.

فَالْعِبَادَةُ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، لَا مَجَالَ فِيهَا لِرَأْيٍ، وَلَا مَجَالَ فِيهَا لِاجْتِهَادٍ.

الْعِبَادَةُ مُقَنَّنَةٌ، مُؤَقَّتَةٌ، مَشْرُوطَةٌ، «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، أَيْ: فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحه» (رَقْم ٢٦٩٧)، وَمُسْلِم فِي «صَحِيحه» (رَقْم ١٧١٨/ ١٧)، من حَدِيث: عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

=

فَمَنْ أَدْرَكَتْهُ رِيَاحُ السَّعَادَةِ، وَهَبَّتْ عَلَيْهِ بِسُكُونِهَا، حَتَّىٰ يَسْتَقِرَّ قَلْبُهُ عَلَىٰ قَرَارِهِ؛ مَنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِالتَّوَازُنِ بَيْنَ قُوَّتَيْهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، كَمَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «تَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»(١)، فَمَا تَعَلَّمُوا أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الدِّينِ إِلَّا عَمِلُوا بِهِ.

وَلَا فَارِقَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِزَمَانٍ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-.(*).

❀❀❀

=

وفي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ (رَقْم ١٧١٨/ ١٨): «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**».

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ» (٨/ ١٩٢، ترجمَةِ أبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ: ٢٩١٦/ ط الْخَانْجِيّ)، وابْن أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّف» (رَقْم ٢٩٩٢٩)، وأَحْمَد فِي «الْمُسْنَد» (٥/ ٤١٠، رَقْم ٢٣٤٨٢)، وَالطَّحَاوِيّ فِي «شَرْح مُشْكِل الْآثَار» (٤/ ٨٣، رَقْم ١٤٥١)، بِإِسْنَادٍ صَحِيح، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: «**حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزُوهُنَّ إِلَىٰ الْعَشْرِ الْأُخَرِ حَتَّىٰ يَعْلَمُوا مَا فِيهِنَّ مِنَ الْعَمَلِ**، قَالَ: **فَتَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا**».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ/ ٥-١٠-٢٠١٢م.

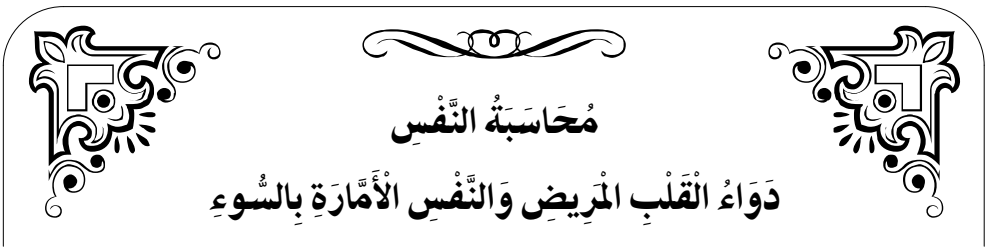

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ

دَوَاءُ الْقَلْبِ الْمَرِيضِ وَالنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ

فِي هَذِهِ الرِّيَاحِ الْهُوجِ الَّتِي هِيَ بِمَهَابِّهَا، تُطَوِّحُ بِالْقُلُوبِ، وَتَطِيرُ بِهَا كُلَّ صَوْبٍ، وَتَتْبَعُ بِهَا كُلَّ حَدْبٍ، فِي هَذَا الشَّأْنِ يَنْبَغِي عَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَتَأَمَّلَ فِي حَالِ قَلْبِهِ، وَمَا أَنْذَرَ عِلْمَ الْقُلُوبِ! فَإِنَّ النَّاسِ فِي غَفْلَةٍ -إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ جَلَّوَعَلَا-، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ قَلْبِهِ مُفَتِّشًا، وَفِي أَطْوَاءِ ضَمِيرِهِ مُنَقِّبًا؛ لِيَنْظُرَ مَا انْطَوَىٰ عَلَيْهِ قَلْبُهُ، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ فُؤَادُهُ، وَلِيَتَأَمَّلَ فِي حَالِهِ، أَمَرْضٍ هُوَ لِرَبِّهِ بِفِعَالِهِ وَقَالِهِ، أَمْ هُوَ عَابِدٌ لِهَوَاهُ؟!!

وَالنَّفْسُ قَدْ تَكُونُ أَمَّارَةً، وَتَارَّةً لَوَّامَةً، وَتَارَةً مُطْمَئِنَّةً، بَلْ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ وَالسَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ؛ يَحْصُلُ مِنْهَا هَذَا وَهَذَا، وَالْحُكْمُ لِلْغَالِبِ عَلَيْهَا مِنْ أَحْوَالِهَا، فَكَوْنُهَا مُطْمَئِنَّةً وَصْفُ مَدْحٍ لَهَا، وَكَوْنُهَا أَمَّارَةً بِالسُّوءِ وَصْفُ ذَمٍّ لَهَا، وَكَوْنُهَا لَوَّامَةً يَنْقَسِمُ إِلَىٰ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ، بِحَسَبِ مَا تَلُومُ عَلَيْهِ.

مَرَضُ الْقَلْبِ بِاسْتِيلَاءِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ عَلَيْهِ، لَهُ عِلَاجَانِ: مُحَاسَبَتُهَا وَمُخَالَفَتُهَا.

عَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَنْظُرَ فِي نَفْسِهِ أَمُطْمَئِنَّةٌ هِيَ؟

أَلَوَّامَةٌ؟

أَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ؟

فِي أَيِّ قِسْمٍ نَفْسُهُ قَدِ اسْتَقَرَّتْ؟

وَهِيَ لَا تَسْتَقِرُّ فِي قِسْمٍ أَبَدًا، فَتَارَةً تَكُونُ مُطْمَئِنَّةً، وَتَارَةً تَكُونُ لَوَّامَةً، وَتَارَةً تَكُونَ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ.

«وَمَرَضُ الْقَلْبِ بِاسْتِيلَاءِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ عَلَيْهِ، لَهُ عِلَاجَانِ:

مُحَاسَبَتُهَا وَمُخَالَفَتُهَا، وَهَلَاكُ الْقَلْبِ مِنْ إِهْمَالِ مُحَاسَبَتِهَا، وَمِنْ مُوَافَقَتِهَا وَاتِّبَاعِ هَوَاهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ»(١)، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا؛ أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ، يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ».

---

(١) «الزُّهْد» (رَقْم ٦٣٣)، وَأَخْرَجَهُ أيضًا ابنُ المُباركِ في «الزُّهْد» (رَقْم ٣٠٦)، وابنُ أبِي شَيبةَ في «الْمُصَنَّف» (رَقْم ٣٤٤٥٩)، وابْن أَبِي الدُّنْيَا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٢)، وأبو نُعَيمٍ في «الحلية» (١/ ٥٢، ترجمة عمر بن الخطاب: ٢)، من طرق: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا**،...» فذكره، وجود إِسْنَاده موقوفا الْأَلْبَانِيّ في «الضعيفة» (٣/ رَقْم ١٢٠١).

وَذَكَرَ -أَيْضًا-[١] **عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ**: «لَا تَلْقَىٰ الْمُؤْمِنَ إِلَّا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ، مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي؟ مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي؟ مَا أَرَدْتُ بِشَرْبَتِي؟

وَالْفَاجِرُ يَمْضِي قُدُمَا، لَا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ».

لَا تَلْقَىٰ الْمُؤْمِنَ إِلَّا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ، وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَيَمْضِي قُدُمًا!!

إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَضَاعَ نَفْسَهُ وَظَلَمَهَا؛ ضَيَّعَ حَظَّهَا مِنْ رَبِّهَا.

قَالَ الْحَسَنُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ، مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَكَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ»[٢].

---

(١) «الزُّهْد» (رقم ١٦١٦)، وأَخْرَجَهُ أيضا ابْن أَبِي الدُّنْيَا فِي «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٤)، بِإِسْنَاد صحيح، عَنِ الْحَسَنِ، فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:٢]، قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ يَقُولُ: مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي؟ يَقُولُ: مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي؟ مَا أَرَدْتُ بِحَدِيثِ نَفْسِي؟ فَلَا تَرَاهُ إِلَّا يُعَاتِبُهَا، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَمْضِي قُدُمًا فَلَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ».
وفي رِوَايَةٍ: «لَا يُلْقَىٰ الْمُؤْمِنُ إِلَّا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ: مَاذَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي؟ مَاذَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي؟ مَاذَا أَرَدْتُ بِشَرْبَتِي؟ وَالْعَاجِزُ يَمْضِي قُدُمًا لَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ».

(٢) أَخْرَجَهُ الْحُسَيْنُ الْمَرْوَزِيُّ فِي زائده علىٰ «الزُّهْد» لابْنِ الْمُبَارَكِ (رَقْم ١١٠٣)، وابْن أَبِي الدُّنْيَا فِي «كتاب العيال» (رَقْم ٣٣٣)، وفي «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٦)، والدِّينَوَرِيُّ فِي «المُجالسة» (رَقْم ١٩١٧ و٢٦٩٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٤٥، ترجمة الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ١٦٩)، من طرق: عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ وَكَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ»، وهو صحيح عنه.

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: «لَا يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا، حَتَّىٰ يَكُونَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ مُحَاسَبَةً مِنَ الشَّرِيكِ لِشَرِيكِهِ»(١)؛ وَلِهَذَا قِيلَ: «النَّفْسُ كَالشَّرِيكِ الْخَوَّانِ، إِنْ لَمْ تُحَاسِبْهُ ذَهَبَ بِمَالِكَ».

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ -أَيْضًا-: «التَّقِيُّ أَشَدُّ مُحَاسَبَةً لِنَفْسِهِ مِنْ سُلْطَانٍ عَاضٍّ، وَمِنْ شَرِيكٍ شَحِيحٍ»(٢).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ(٣) عَنْ وَهْبٍ، قَالَ: «**مَكْتُوبٌ «فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ»**: «حَقٌّ عَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ لا يَغْفَلَ عَنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ:

---

(١) ذكره التِّرْمِذِيّ في «الجامع» معلقا (٤/ ٦٣٨، رَقْم ٢٤٥٩)، وأَخْرَجَهُ موصولا: وكيع في «الزُّهْد» (رَقْم ٢٣٩)، وابْن أَبِي شَيْبَةَ في «الْمُصَنَّف» (رَقْم ٣٥٢٧١ و٣٥٦٢٥)، وهناد بن السري في «الزُّهْد» (٢/ ٥٨٠، رَقْم ١٢٢٨)، وابْن أَبِي الدُّنْيَا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٨٩، ترجمة مَيْمُون بْن مِهْرَانَ: ٢٥١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٣٥٣ - ٣٥٤، ترجمة مَيْمُون بْن مِهْرَانَ: ٧٨٠٦)، بإِسْنَاد صحيح.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْن أَبِي الدُّنْيَا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٣٥٣)، بإِسْنَاد صحيح.

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ الْبَنَّا الْحَنْبَلِيُّ في «الرِّسَالَةِ المُغنيةِ» (رَقْم ١٩)، مِنْ طَرِيقِ الإِمَامِ أَحْمَدَ، وَالأَثَرُ أَخْرَجَهُ أيضًا ابنُ المُبارَكِ في «الزُّهْدِ» (رَقْم ٣١٣)، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ في «الْمُصَنَّفِ - جامع معمر» (رَقْم ١٩٧٩٠)، وهناد بن السري في «الزُّهْد» (٢/ ٥٨٠، رَقْم ١٢٢٦)، وابْن أَبِي الدُّنْيَا في «إصلاح المال» (رَقْم ٢٣٦)، وفي «الصمت» (رَقْم ٣١)، وفي «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ١٢)، والْبَيْهَقِيّ في «شُعَب الْإِيمَانِ» (٦/ رَقْم ٤٣٥٢ و٤٣٥٣)، =

سَاعَةٍ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٍ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٍ يَخْلُو فِيهَا مَعَ إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يُخْبِرُونَهُ بِعُيُوبِهِ وَيَصْدُقُونَهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَسَاعَةٍ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّاتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ؛ فَإِنَّ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَوْنًا عَلَىٰ تِلكَ السَّاعَاتِ، وَإِجْمَامًا لِلْقُلُوبِ»»(١).

«وَكُلُّ السَّائِرِينَ إِلَىٰ اللهِ، مُجْمِعُونَ عَلَىٰ أَنَّ مُرَاقَبَةَ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الْخَوَاطِرِ، سَبَبٌ لِحِفْظِهَا فِي حَرَكَاتِ الظَّوَاهِرِ، فَمَنْ رَاقَبَ اللهَ فِي سِرِّهِ، حَفِظَهُ اللهُ فِي حَرَكَاتِهِ فِي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ»(٢).(*).

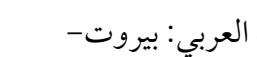

=

بِإِسْنَاد صحيح، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ: «**مَكْتُوبٌ فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ: حَقٌّ عَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَغْفَلَ عَنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ**،...» فذكره.

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» لابن القيم، الطبعة الأولىٰ (١٤٣٢ هـ)، دار عالم الْفَوَائِدُ: مكة- (١/ ١٣١ - ١٣٣).

(٢) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» لابن القيم، الطبعة الثالثة (١٤١٦هـ)، دار الكتاب العربي: بيروت- (٢/ ٦٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ/ ٥-١٠-٢٠١٢م.

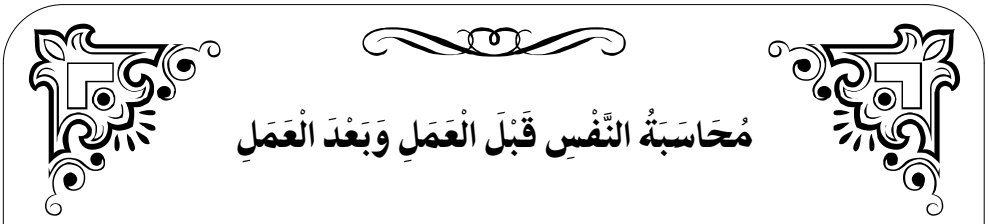

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ قَبْلَ الْعَمَلِ وَبَعْدَ الْعَمَلِ

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ مُحَاسَبَةَ النَّفْسِ وَاجِبَةٌ، يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُحَاسِبَ نَفْسَكَ.

«**وَمُحَاسَبَةُ النَّفْسِ نَوْعَانِ**: نَوْعٌ قَبْلَ الْعَمَلِ، وَنَوْعٌ بَعْدَ الْعَمَلِ.

*** مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ قَبْلَ الْعَمَلِ:**

فَأَمَّا النَّوْعُ الْأَوَّلُ: فَهُوَ أَنْ يَقِفَ عِنْدَ أَوَّلِ هَمِّهِ وَإِرَادَتِهِ، وَلَا يُبَادِرَ بِالْعَمَلِ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُ رُجْحَانُهُ عَلَىٰ تَرْكِهِ.

قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا وَقَفَ عِنْدَ هَمِّهِ، فَإِنْ كَانَ للهِ؛ مَضَىٰ، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِهِ؛ تَأَخَّرَ»(١).

وَشَرَحَ هَذَا بَعْضُهُمْ، فَقَالَ: «إِذَا تَحَرَّكَتِ النَّفْسُ لِعَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَهَمَّ بِهِ الْعَبْدُ، وَقَفَ أَوَّلًا وَنَظَرَ، هَلْ ذَلِكَ الْعَمَلُ مَقْدُورٌ لَهُ أَوْ غَيْرُ مَقْدُورٍ وَلَا مُسْتَطَاعٍ؟

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْن أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّف» (رَقْم ٣٥١٨٧)، والْبَيْهَقِيّ فِي «شُعَب الْإِيمَانِ» (٩/ رَقْم ٦٨٩٤)، بِإِسْنَاد صحيح، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «**رَحِمَ اللهُ عَبْدًا وَقَفَ عِنْدَ هَمِّهِ**،...» فذكره.

وأَخْرَجَ نَحْوَهُ الدُّولابِيُّ فِي «الكنىٰ» (رَقْم ٧١٧)، بِإِسْنَاد صحيح، بلفظ: «**إِنَّ كُلَّ عَمَلٍ سَيَبْدُو هَمًّا فَمَنْ هَمَّ بِخَيْرٍ فَلْيُمْضِهِ، وَمَنْ هَمَّ بِشَرٍّ فَلْيُمْسِكْ عَنْهُ**».

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْدُورًا، لَمْ يُقْدَمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ مَقْدُورًا، وَقَفَ وَقْفَةً أُخْرَىٰ وَنَظَرَ، هَلْ فِعْلُهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ تَرْكِهِ، أَوْ تَرْكُهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ فِعْلِهِ؟

فَإِنْ كَانَ الثَّانِي تَرَكَهُ وَلَمْ يُقْدِمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ، وَقَفَ وَقْفَةً ثَالِثَةً وَنَظَرَ، هَلْ الْبَاعِثُ عَلَيْهِ إِرَادَةُ وَجْهِ اللهِ ﷻ وَثَوَابِهِ، أَوْ إِرَادَةُ الْجَاهِ وَالثَّنَاءِ وَالْمَالِ مِنَ الْمَخْلُوقِ؟

فَإِنْ كَانَ الثَّانِي؛ لَمْ يُقْدِمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ أَفْضَىٰ بِهِ إِلَىٰ مَطْلُوبِهِ؛ لِئَلَّا يَعْتَادَ عَلَىٰ الشِّرْكِ؛ وَلِئَلَّا يُعَوِّدَ النَّفْسَ عَلَيْهِ؛ وَحَتَّىٰ لَا يَخِفَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْعَمَلُ لِغَيْرِ اللهِ.

فَبِقَدْرِ مَا يَخِفُّ عَلَيْهَا ذَلِكَ، يَثْقُلُ عَلَيْهَا الْعَمَلُ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

بِقَدْرِ مَا يَخِفُّ عَلَىٰ النَّفْسِ الْعَمَلُ لِغَيْرِ اللهِ، مِنْ إِرَادَةِ الثَّنَاءِ وَالْجَاهِ وَالْحَظِّ عِنْدَ غَيْرِ اللهِ، بِقَدْرِ مَا يَثْقُلُ عَلَيْهَا الْعَمَلُ للهِ، حَتَّىٰ يَصِيرَ أَثْقَلَ شَيْءٍ عَلَيْهَا.

وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ، وَقَفَ وَقْفَةً أُخْرَىٰ، وَنَظَرَ هَلْ هُوَ مُعَانٌ عَلَيْهِ، وَلَهُ أَعْوَانٌ يُسَاعِدُونَهُ وَيَنْصُرُونَهُ إِذَا كَانَ الْعَمَلُ مُحْتَاجًا إِلَىٰ ذَلِكَ أَو لَا؟

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَعْوَانٌ أَمْسَكَ عَنْهُ، كَمَا أَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْجِهَادِ بِمَكَّةَ، كَمَا أَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْقِتَالِ بِمَكَّةَ، حَتَّىٰ صَارَ لَهُ شَوْكَةٌ وَأَنْصَارٌ، وَإِنْ وَجَدَهُ مُعَانًا عَلَيْهِ، فَلْيُقْدِمْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْصُورٌ(١)، وَلَا يَفُوتُ النَّجَاحُ إِلَّا مِنْ فَوَاتِ خَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ، وَإِلَّا فَمَعَ اجْتِمَاعِهَا، لَا يَفُوتُهُ النَّجَاحُ».

---

(١) فقَدْ كَانَ الْجِهَادُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ قَبْل الْهِجْرَةِ غَيْرَ مَأْذُونٍ فِيهِ؛ لأنَّ الَّذِي أُمِرَ بِهِ ﷺ أَوَّل الأَمْرِ هُوَ التَّبْلِيغُ وَالإِنْذَارُ، وَالصَّبْرُ عَلَىٰ أَذَىٰ الْكُفَّارِ، وَالصَّفْحُ وَالإِعْرَاضُ عَنِ

مُلَخَّصُ ذَلِكَ: هَذِهِ أَرْبَعَةُ مَقَامَاتٍ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ عَلَيْهَا قَبْلَ الْعَمَلِ.

فَاحْفَظْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ عَزِيزٌ، وَقَلَّ الْإِخْفَاقُ، بَلِ انْتَفَىٰ مَعَ الْإِتْيَانِ بِتِلْكَ الْمَقَامَاتِ، فَمَا كُلُّ مَا يُرِيدُ الْعَبْدُ فِعْلُهُ يَكُونُ مَقْدُورًا لَهُ، وَلَا كُلُّ مَا يَكُونُ مَقْدُورًا

=

الْمُشْرِكِينَ، قَال اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وَقَال أَيْضًا: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وَقَال أَيْضًا: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: «كَانَ هَذَا قَبْلَ الْقِتَالِ».

ثُمَّ أَذِنَ اللهُ ﷻ بَعْدَ الْهِجْرَةِ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْقِتَال إِذَا ابْتَدَأَهُمُ الْكُفَّارُ بِالْقِتَالِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: «أُذِنَ لَهُمْ فِي قِتَالِهِمْ بَعْدَ مَا عَفَا عَنْهُمْ عَشْرَ سِنِينَ»، وَقَرَأَ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠]، وَقَالَ: «هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ».

ثُمَّ شَرَعَ اللهُ الِابْتِدَاءَ بِالْقِتَال عَلَىٰ الإِطْلَاقِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ [التوبة: ٤١]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ٣٦]، وَتُسَمَّىٰ هَذِهِ آيَةَ السَّيْفِ، وَقَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ**»، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيّ (رَقْم ١٣٩٩ و٦٩٢٤)، ومُسْلِمٌ (رَقْم ٢٠)، من حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وَالْحَدِيثُ بِنَحْوِهِ أيضًا في «الصَّحِيحَينِ» مِنْ حَدِيث: ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، وفي «صحيح الْبُخَارِيّ» من حَدِيث: أَنَسٍ رضي الله عنه، وفي «صحيح مُسْلِم» من حَدِيث: جَابِرٍ رضي الله عنه.

لَهُ، يَكُونُ فِعْلُهُ خَيرًا لَهُ مِنْ تَرْكِهِ، وَلَا كُلُّ مَا يَكُونُ فِعْلُهُ خَيْرًا مِنْ تَرْكِهِ؛ يَفْعَلُهُ للهِ، وَلَا كُلُّ مَا يَفْعَلُهُ للهِ؛ يَكُونُ مُعَانًا عَلَيْهِ.

فَإِذَا حَاسَبَ نَفْسَهَ عَلَىٰ ذَلِكَ، تَبَيَّنَ لَهُ مَا يُقْدِمُ عَلَيْهِ، وَمَا يُحْجِمُ عَنْهُ.

فَهَذَا هُوَ النَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنْ نَوْعَيْ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، وَهُوَ مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ قَبْلَ الْعَمَلِ.

*** النَّوْعُ الثَّانِي: مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ بَعْدَ الْعَمَلِ:**

وَمُحَاسَبَةُ النَّفْسِ بَعْدَ الْعَمَلِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: مُحَاسَبَتُهَا عَلَىٰ طَاعَةٍ قَصَّرَتْ فِيهَا مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ، فَلَمْ تُوقِعْهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي.

وَحَقُّ اللهِ فِي الطَّاعَةِ سِتَّةُ أُمُورٍ:

وَهِيَ الْإِخْلَاصُ فِي الْعَمَلِ، وَالنَّصِيحَةُ للهِ فِيهِ، وَمُتَابَعَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِيهِ، وَشُهُودُ مَشْهَدِ الْإِحْسَانِ فِيهِ، وَشُهُودُ مِنَّةِ اللهِ عَلَيْهِ، وَشُهُودُ تَقْصِيرِهِ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَيُحَاسِبُ نَفْسَهُ، هَلْ وَفَّىٰ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ حَقَّهَا؟ وَهَلْ أَتَىٰ بِهَا فِي هَذِهِ الطَّاعَةِ؟

الْقِسْمُ الثَّانِي: أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَىٰ كُلِّ عَمَلٍ كَانَ تَرْكُهُ خَيْرًا لَهُ مِنْ فِعْلِهِ.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ مُبَاحٍ، أَوْ مُعْتَادٍ، لِمَ فَعَلَهُ؟ وَهَلْ أَرَادَ بِهِ اللهَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، فَيَكُونَ رَابِحًا، أَوْ أَرَادَ بِهِ الدُّنْيَا وَعَاجِلَهَا، فَيَخْسِرَ ذَلِكَ الرِّبْحَ، وَيَفُوتَهُ الظَّفَرُ بِهِ؟»[1].

---

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١/ ١٣٨ - ١٣٩).

فَيُحَاسِبُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ قَبْلَ الْعَمَلِ، وَيُحَاسِبُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ بَعْدَ الْعَمَلِ، الْمُنَافِقُ يَمْضِي قُدُمًا هَكَذَا، لَا حَسِيبَ وَلَا رَقِيبَ، وَلَا يَتَوَقَّفُ مُتَمَهِّلًا، مُتَأَنِّيًا، مُتَفَكِّرًا؛ لِيُفَتِّشَ فِي قَلْبِهِ، وَلِيُنَقِّبَ فِي ضَمِيرِهِ، وَلِيَنْظُرَ فِي دَوَافِعِهِ، حَتَّىٰ يُحَرِّرَ مُحَقِّقًا نِيَّتَهُ، يَمْضِي قُدُمًا وَلَا يَلْوِي عَلَىٰ شَيْءٍ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ أَمْرٍ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَتَوَقَّىٰ.

*** حَاسِبْ نَفْسَكَ وَتَعَلَّمِ الْحِكْمَةَ مِنَ الضَّرِيرِ!!**

وَأَنْتَ خَبِيرٌ، أَنَّكَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْحِكْمَةَ مِنَ الضَّرِيرِ؛ لِأَنَّ الضَّرِيرَ لَا يَمُدُّ قَدَمَهُ حَتَّىٰ يَضَعَ عَصَاهُ، لَا يَضَعُ قَدَمَهُ حَتَّىٰ يَضَعَ عَصَاهُ، تَعَلَّمِ الْحِكْمَةَ مِنَ الضَّرِيرِ، يَدِبُّ عَلَىٰ عَصَاهُ، وَلَا يَرْفَعُ قَدَمَهُ لِيَضَعَهَا حَتَّىٰ يَضَعَ عَصَاهُ.

تَبَصَّرْ، تَأَنَّ مُتَمَهِّلًا، نَاظِرًا فِي حَالِ قَلْبِكَ وَسَوَاءِ ضَمِيرِكَ، لَا تَكُنْ كَالْهَمَجِ الرَّعَاعِ، فَقَدْ مَاجَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا، تَعْلُو بِهِمْ مَوْجَةٌ وَتَطْفُو بِهِمْ، وَتَنْحَطُّ بِهِمْ أُخْرَىٰ وَتَسْفُلُ بِهِمْ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ لِمَا ارْتَفَعُوا، وَلِمَا انْحَطُّوا، وَإِنَّمَا هُمْ سَائِرُونَ.

*** أَضَرُّ شَيْءٍ عَلَى الْعَبْدِ تَرْكُ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ وَالِاسْتِهَانَةِ:**

«أَضَرُّ شَيْءٍ عَلَيْكَ الِاسْتِهَانَةُ وَالْإِهْمَالُ، وَتَرْكُ الْمُحَاسَبَةِ، وَالِاسْتِرْسَالُ، وَتَسْهِيلُ الْأُمُورِ وَتَمْشِيَتُهَا، هَذَا أَضَرُّ مَا عَلَىٰ النَّفْسِ، فَإِنَّ هَذَا يَؤُولُ بِالْمَرْءِ إِلَىٰ الْهَلَاكِ.

وَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ الْغُرُورِ، يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ عَنِ الْعَوَاقِبِ، وَيُمَشِّي الْحَالَ، وَيَتَّكِلُ عَلَىٰ الْعَفْوِ، فَيُهْمِلُ مُحَاسَبَةَ نَفْسِهِ، وَالنَّظَرَ فِي عَوَاقِبِهَا، وَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ؛ سَهُلَ

عَلَيْهِ مُوَاقَعَةُ الذُّنُوبِ وَأَنِسَ بِهَا، وَعَسُرَ عَلَيْهِ فِطَامُهَا، وَلَوْ حَضَرَهُ رُشْدُهُ لَعَلِمَ أَنَّ الْحِمْيَةَ أَسْهَلُ مِنَ الْفِطَامِ، وَتَرْكِ الْمَأْلُوفِ وَالْمُعْتَادِ»(١).(*).

❀❀❀

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١/ ١٤٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ/ ٥-١٠-٢٠١٢م.

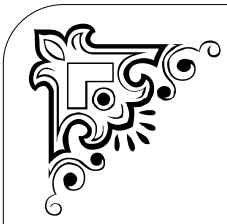

كَيْفَ نُحَاسِبُ أَنْفُسَنَا؟

«**قَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا**[1]: «حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، ذُكِرَ أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ تَوْبَةُ بْنُ الصِّمَّةِ بِـ(الرَّقَّةِ)، وَكَانَ مُحَاسِبًا لِنَفْسِهِ، فَحَسَبَ يَوْمًا، فَإِذَا هُوَ ابْنُ سِتِّينَ سَنَةً، فَحَسَبَ أَيَّامَهَا -أَيَّامَ السِّتِّينَ- فَإِذَا هِيَ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ يَوْمٍ وَخَمْسُمِئَةِ يَوْمٍ، فَصَرَخَ، وَقَالَ: يَا وَيْلَتَا، أَلْقَىٰ رَبِّي بِأَحَدٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ ذَنْبٍ، كَيْفَ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ آلَافٌ مِنَ الذُّنُوبِ؟!!

ثُمَّ خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ، فَسَمِعُوا قَائِلًا يَقُولُ: يَا لَكِ رَكْضَةً إِلَىٰ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَىٰ!!». -فِي خُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ-.

وَجِمَاعُ ذَلِكَ: أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ أَوَّلًا عَلَىٰ الْفَرَائِضِ، فَإِنْ تَذَكَّرَ فِيهَا نَقْصًا تَدَارَكَهُ، إِمَّا بِقَضَاءٍ أَوْ إِصْلَاحٍ، ثُمَّ يُحَاسِبُهَا عَلَىٰ الْمَنَاهِي، فَإِنْ عَرِفَ أَنَّهُ ارْتَكَبَ مِنْهَا شَيْئًا، تَدَارَكَهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ، ثُمَّ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَىٰ الْغَفْلَةِ، فَإِنْ كَانَ قَدْ غَفَلَ عَمَّا خُلِقَ لَهُ، تَدَارَكَهُ بِالذِّكْرِ، وَالْإِقْبَالِ عَلَىٰ اللهِ، ثُمَّ

---

(١) «مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ» (رَقْم ٧٦)، ومن طريقه: أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيّ في «شُعَب الْإِيمَانِ» (٢/ رَقْم ٩١٦)، والخطيب كما في المنتخب من كتابه «الزُّهْد» (رَقْم ٧٠).

يُحَاسِبُهَا بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ، أَوْ مَشَتْ إِلَيْهِ رِجْلَاهُ، أَوْ بَطَشَتْهُ يَدَاهُ، أَوْ سَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ، مَاذَا أَرَدْتَ بِهَذَا؟ وَلِمَنْ فَعَلْتَ؟ وَعَلَىٰ أَيِّ وَجْهٍ فَعَلْتَ؟

وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُنْشَرَ لِكُلِّ حَرَكَةٍ وَكَلِمَةٍ مِنْهُ دِيوَانَانِ:

دِيوَانٌ: لِمَنْ فَعَلْتَ؟

وَدِيوَانٌ: كَيْفَ فَعَلْتَ؟

كُلُّ حَرَكَةٍ مِنْكَ، وَكُلُّ كَلِمَةٍ مِنْكَ، يُنْشَرُ لَهَا دِيوَانَانِ، دِيوَانٌ: لِمَنْ فَعَلْتَ؟ وَدِيوَانٌ: كَيْفَ فَعَلْتَ؟

فَالْأَوَّلُ: سُؤَالٌ عَنِ الْإِخْلَاصِ، وَالثَّانِي: سُؤَالٌ عَنِ الْمُتَابَعَةِ.

قَالَ رَبُّكَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الحجر: ٩٢- ٩٣].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦- ٧].

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]، فَإِذَا سُئِلَ الصَّادِقُونَ، وَحُوسِبُوا عَلَىٰ صِدْقِهِمْ، فَمَا الظَّنُّ بِالْكَاذِبِينَ؟!!

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، إِذَا سُئِلَ الصَّادِقُونَ، فَمَاذَا يُفْعَلُ بِالْكَاذِبِينَ؟!!

قَالَ مُقَاتِلٌ(١): «يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿أَخَذْنَا ... مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧]: لِكَيْ يَسْأَلَ الصَّادِقِينَ، يَعْنِي: النَّبِيِّينَ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ».

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «يَسْأَلُ الْمُبَلِّغِينَ الْمُؤَدِّينَ عَنِ الرُّسُلِ»(٢)، يَعْنِي: هَلْ بَلَّغُوا عَنْهُمْ، كَمَا يُسْأَلُ الرُّسُلُ، هَلْ بَلَّغُوا عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ؟

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْآيَةَ تَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا، فَالصَّادِقُونَ هُمُ الرُّسُلُ، وَالْمُبَلِّغُونَ عَنْهُمْ، فَيُسْأَلُ الرُّسُلُ عَنْ تَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَيَسْأَلُ اللهُ تَعَالَىٰ الْمُبَلِّغِينَ عَنِ الرُّسُلِ، عَنْ تَبْلِيغِ مَا بَلَّغَتْهُمُ الرُّسُلُ، ثُمَّ يَسْأَلُ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمُ الرِّسَالَةُ، مَاذَا أَجَابُوا الْمُرْسَلِينَ؟

كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

قَالَ قَتَادَةُ: «كَلِمَتَانِ يُسْأَلُ عَنْهُمَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، مَاذَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ وَمَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ؟»(٣).

فَيُسْأَلُ عَنِ الْمَعْبُودِ، وَعَنِ الْعِبَادَةِ.

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

---

(١) «تفسيره» (٣/ ٣٦).

(٢) ذكره الْبُخَارِيّ معلقا في «صَحِيحه» في (كتاب التوحيد، باب٤٠)، وأَخْرَجَهُ موصولا عبد الرحمن بن الحسن الهمذاني في «تفسير مجاهد» (ص ٥٤٧)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢١٤)، بإِسْنَاد صحيح.

(٣) ذكره ابن القيم في «مَدَارِج السَّالِكِينَ» (١/ ٣٥٠)، وفي غيره، وشيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوىٰ» (١٥/ ١٠٥) وفي غيره من قول أبي العالية.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «يَقُولُ تَعَالَىٰ: ثُمَّ لَيَسْأَلَنَّكُمُ اللهُ جَلَّوَعَلَا عَنِ النَّعِيمِ الَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ فِي الدُّنْيَا، مَاذَا عَمِلْتُمْ فِيهِ؟ وَمَنْ أَيْنَ وَصَلْتُمْ إِلَيْهِ؟ وَفِيمَا أَصَبْتُمُوهُ؟ وَمَاذَا عَمِلْتُمْ بِهِ؟».

وَقَالَ قَتَادَةُ: «إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ عَبْدٍ عَمَّا اسْتَوْدَعَهُ مِنْ نِعْمَتِهِ وَحَقِّهِ»(٢).

وَالنَّعِيمُ الْمَسْئُولُ عَنْهُ نَوْعَانِ:

- **نَوْعٌ**: أُخِذَ مِنْ حِلِّهِ، وَصُرِفَ فِي حَقِّهِ، فَيُسْأَلُ عَنْ شُكْرِهِ.

- **وَنَوْعٌ**: أُخِذَ بِغَيْرِ حِلِّهِ، وَصُرِفَ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، فَيُسْأَلُ عَنْ مُسْتَخْرَجِهِ وَمَصْرِفِهِ.

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مَسْئُولًا وَمُحَاسَبًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ حَتَّىٰ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَقَلْبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُنَاقَشَ الْحِسَابَ.(*).

❀❀❀

(١) «تفسيره» (٢٤/ ٥٨١).

(٢) أَخْرَجَهُ عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ رَقْم ٣٦٨٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٥٨٦)، بِإِسْنَاد صحيح.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ/ ٥-١٠-٢٠١٢م.

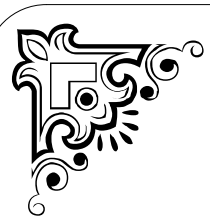

وُجُوبُ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ وُجُوبِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ -هَذَا أَمْرٌ وَاجِبٌ عَلَيْكَ، لَيْسَ تَطَوُّعًا مِنْكَ، وَلَا نَفْلًا، وَلَا مِنَّةً، هَذَا أَمْرٌ وَاجِبٌ عَلَيْكَ، إِنْ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَأَنْتَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، مُعَاقَبٌ عَلَىٰ التَّخَلُّفِ عَنْهُ- دَلَّ عَلَىٰ وُجُوبِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ١٨]، يَقُولُ تَعَالَىٰ: لِيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ، مَا قَدَّمَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَعْمَالِ، أَمِنَ الصَّالِحَاتِ الَّتِي تُنْجِيهِ، أَمِ السَّيِّئَاتِ الَّتِي تُوبِقُهُ؟

قَالَ قَتَادَةُ: «مَا زَالَ رَبُّكُمْ يُقَرِّبُ السَّاعَةَ، حَتَّىٰ جَعَلَهَا كَغَدٍ»(١).

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ صَلَاحَ الْقَلْبِ بِمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، وَأَنَّ فَسَادَ الْقَلْبِ بِإِهْمَالِ النَّفْسِ، وَالِاسْتِرْسَالِ مَعَهَا»(٢).(*).

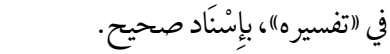

(١) أَخْرَجَهُ عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ رَقْم ٣١٩٥)، والطبري في «تفسيره»، بِإِسْنَاد صحيح.

(٢) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١/ ١٤٠ - ١٤٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ/ ٥-١٠-٢٠١٢م.

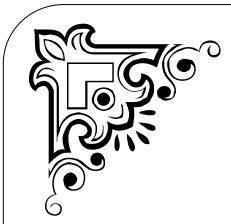

احْذَرْ الِاسْتِهَانَةَ؛ فَبِهَا الْهَلَاكُ!!

كَـانَ لِلْغِرْبَـانِ فِـي الْعَصْـرِ مَلِيـك ... وَلَـهُ فِـي النَّخْلَـةِ الْكُبْـرَىٰ أَرِيـك
فِيـــهِ كُرْسِـــيٌّ وَخِـــدْرٌ وَمُهُـــود ... لِصِـغَارِ الْمُلْـكِ أَصْـحَابِ الْعُهُـودِ
جَـــاءَهُ يَوْمًـــا نُـــدُورُ الْخَـــادِمُ ... وَهُـوَ فِـي الْبَـابِ الْأَمِـينُ الْحَـازِمُ

قَالَ.. -أَيْ الْخَادِمُ الْمُسَمَّىٰ نُدُور-:

قَـالَ: يَـا فَـرْعَ الْمُلُـوكِ الصَّـالِحِينَ ... أَنْـتَ مَـا زِلْـتَ تُحِـبُّ النَّاصِـحِينَ
سُوسَـةٌ كَانَـتْ عَلَـىٰ الْقَصْـرِ تَـدُورُ ... جَـازَتِ الْقَصْـرَ وَدَنَـتْ فِي الْجُـدُورِ
فَابْعَـــثِ الْغِرْبَـــانَ فِـــي إِهْلَاكِهَـــا ... قَبْـــلَ أَنْ نَهْلِـــكَ فِـــي أَشْـــرَاكِهَا
ضَـحِكَ السُّـلْطَانُ مِـنْ هَـذَا الْمَقَـالِ ... ثُـــمَّ أَدْنَـــىٰ خَـــادِمَ الْخَيْـــرِ وَقَـــالَ:
أَنَـا رَبُّ الشَّـوْكَةِ الضَّـافِي الْجَنَـاح ... أَنَـــا ذُو الْمِنْقَـــارِ غَـــلَّابُ الرِّيَـــاح
«أَنَـا لَا أَنْظُـرُ فِـي هَـذِي الْأُمُـور» ... أَنَـــا لَا أُبْصِـــرُ تَحْتِـــي يَـــا نُـــدُور
ثُـــمَّ لَمَّـــا كَـــانَ عَـــامٌ بَعْـــدَ عَـــام ... قَـامَ بَـيْنَ الـرِّيحِ وَالنَّخْـلِ خِصَـام
وَإِذَا النَّخْلَـــةُ أَقْـــوَىٰ جِـــذْعُهَا ... فَبَـــدَا لِلـــرِّيحِ سَـــهْلًا قَلْعُهَـــا
فَهَـوَتْ لِـلْأَرْضِ كَالتَّـلِّ الْكَبِيـر ... وَهَـوَىٰ الـدِّيوَانُ وَانْقَـضَّ السَّـرِير

فَدَهَا السُّلْطَانَ ذَا الْخَطْبُ الْمَهُول وَدَعَا خَادِمَهُ الْغَالِي يَقُولُ:
يَا نُدُورَ الْخَيْرِ، أَسْعِفْ بِالصِّيَاحِ مَا تَرَىٰ مَا فَعَلَتْ فِينَا الرِّيَاح؟
قَالَ: يَا مَوْلَايَ، لَا تَسْأَلْ نُدُور «أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هَذِي الْأُمُور»؟(١)

فَتَأَمَّلْ فِي عَاقِبَةِ الِاسْتِهَانَةِ، لَمَّا أَهْمَلَ سُوسَةً كَانَتْ عَلَىٰ الْقَصْرِ تَدُورُ، وَالْقَصْرُ هُنَا مَا هُوَ؟ هُوَ تِلْكَ النَّخْلَةُ السَّامِقَةُ، الَّتِي اتَّخَذَ مَلِكُ الْغِرْبَانِ إِيوَانَهُ بِدِيوَانِهِ فِي أَعْلَاهَا، ثُمَّ جَاءَتْ هَذِهِ فَأُهْمِلَتْ، وَعَامًا بَعْدَ عَامٍ، وَقَعَتِ الْفَاجِعَةُ.

تَأَمَّلْ فِي كُلِّ مُلْكٍ يَزُولُ، تَجِدْهُ مِنْ إِهْلَاكِ تِلْكَ السُّوسَةِ الَّتِي حَوْلَ الْقَصْرِ تَدُورُ، فَيُهْمِلُهَا مَنْ لَا يُقَدِّرُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ، ثُمَّ يَبْكِي دَمًا، وَلَاتَ حِينَ مَنْدَمٍ!

وَلَا يُسْعِفُهُ نَدَمٌ بِحَالٍ!!

لَا تَسْتَهِنْ، إِيَّاكَ وَالِاسْتِهَانَةَ، فَإِنَّ خَطْبَهَا عَظِيمٌ، كُنْ حَازِمًا، وَخُذْ الْأُمُورَ مِنْ أَوَائِلِهَا، فَأَمْسِكْ بِزِمَامِهَا، وَصَرِّفْهَا، وَلَا تَدَعْ زِمَامَهَا بِيَدِ الْهَوَىٰ يُصَرِّفُهَا، فَإِنَّهَا بَعْدَ حِينٍ تَشْتَدُّ عَلَيْكَ؛ إِذْ تُحِيطُ بِكَ، فَهِيَ مُهْلِكَةٌ لِلْأَبْعَدِ لَا مَحَالَةَ.

حَاسِبْ نَفْسَكَ، فَمُحَاسَبَةُ النَّفْسِ وَاجِبَةٌ، حَتَّىٰ لَا يَنْدَمَ الْمَرْءُ وَلَاتَ سَاعَةَ مَنْدَمٍ!!

---

(١) القصيدة لأمير الشعراء أَحْمَد شوقي (المتوفىٰ: ١٣٥١ هـ) بعنوان: «ملك الغربان وندور الخادم» في ديوانه: «الشوقيات» (٤/ ١٣٥).

أَسْأَلُ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْيَقَظَةِ بَعْدَ الْغَفْلَةِ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.(*).

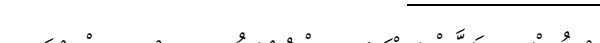

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ/ ٥-١٠-٢٠١٢م.

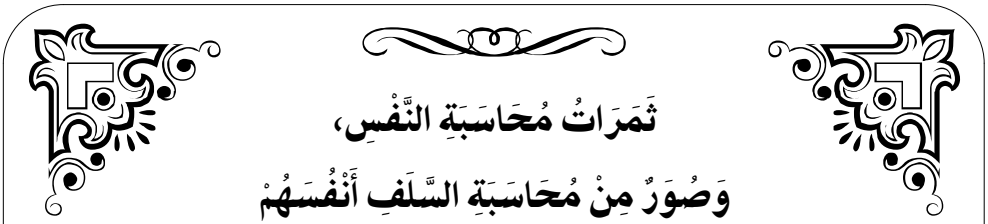

ثَمَرَاتُ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، وَصُوَرٌ مِنْ مُحَاسَبَةِ السَّلَفِ أَنْفُسَهُمْ

«فَفِي مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ مَصَالِحُ، مِنْهَا الِاطِّلَاعُ عَلَىٰ عُيُوبِهَا، وَمَنْ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَىٰ عَيْبِ نَفْسِهِ، لَمْ يُمْكِنْهُ إِزَالَتُهُ، فَإِذَا اطَّلَعَ عَلَىٰ عَيْبِ النَّفْسِ، مَقَتَهَا فِي ذَاتِ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا.

وَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ»(١): **عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ**: «**لَا يَفْقَهُ** الرَّجُلُ كُلَّ الْفِقْهِ، حَتَّىٰ يَمْقُتَ النَّاسَ فِي جَنْبِ اللهِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ نَفْسِهِ، فَيَكُونَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا».

وَقَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «لَوْلَا مَا أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي لَقَلَيْتُ النَّاسَ»(٢).

---

(١) «الزُّهْد» (رَقْم ٧١٣)، وأَخْرَجَهُ أيضا عبد الرزاق في «الْمُصَنَّف - جامع معمر» (رَقْم ٢٠٤٧٣)، وابْن أَبِي شَيْبَةَ في «الْمُصَنَّف» (رَقْم ٣٠١٦٣ و٣٤٥٨٤)، وأبو داود في «الزُّهْد» (رَقْم ٢٣٣)، وابْن أَبِي الدُّنْيَا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٢٣)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٨)، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: «**لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّىٰ يَمْقُتَ النَّاسَ فِي جَنْبِ اللهِ**،...» فذكره.

(٢) أَخْرَجَهُ ابن سعد في «الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ» (٩/ ١٤٤، ترجمة مطرف بن عبد الله: ٣٨٥٥)، وابْن أَبِي الدُّنْيَا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٩، ترجمة ١٧٨)، بِإِسْنَاد صحيح.

=

فَفِي النَّاسِ شَرٌّ كَبِيرٌ -إِلَّا مَنْ رَحِمَ الْخَبِيرُ الْبَصِيرُ-، وَمَهْمَا قَلَّبْتَ النَّاسَ، خَرَجَ لَكَ مِنْ وَرَاءِ تَقْلِيبِهِمْ أُمُورٌ.

«فَلَوْلَا مَا أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي -وَأَنَّهَا أَسْوَءُ، وَقَدِ انْطَوَتْ عَلَىٰ الشَّرِّ الْكَبِيرِ- لَقَلَيْتُ النَّاسَ»؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَعْلَمْ حَالَ نَفْسِهِ، وَخَبَرَ حَالَ غَيْرِهِ، فَوَجَدَ الشَّرَّ بَازِغًا، وَوَجَدَ آفَاتِ النُّفُوسِ حَالَّةً؛ فَإِنَّهُ يَمْقُتُ غَيْرَهُ، وَلَوْ عَلِمَ نَفْسَهُ، لَكَانَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا.

قَالَ مُطَرِّفٌ فِي دُعَائِهِ بِعَرَفَةَ: «اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّ النَّاسَ لِأَجْلِي»(١).

فَيَرَىٰ نَفْسَهُ فِي الْمَوْقِفِ فِي عَرَفَاتٍ أَسْوَءَ النَّاسِ، وَأَرْدَءَ النَّاسِ، وَشَرَّ النَّاسِ، فَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّ النَّاسَ لِأَجْلِي»، مِنْ بَابِ هَضْمِ النَّفْسِ، وَالْإِزْرَاءِ عَلَيْهَا، وَالْحَطِّ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ مَنْ ذَاقَ طَعْمَ نَفْسِهِ هَلَكَ.

فَالنَّفْسُ كَمَاءِ الْبَحْرِ، لَا يَشْبَعُ وَارِدُهُ مَهْمَا شَرِبَ مِنْهُ، فَمَا يَزَالُ يَعُبُّ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ، حَتَّىٰ تَنْقَدَّ مَعِدَتُهُ، وَلَا رِيَّ، وَلَا ارْتِوَاءَ، فَاللَّهُمَّ لَا تُذِقْنَا طَعْمَ أَنْفُسِنَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ!!

قَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيُّ: «لَمَّا نَظَرْتُ إِلَىٰ أَهْلِ عَرَفَاتٍ، ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَدْ غُفِرَ لَهُمْ، لَوْلَا أَنِّي كُنْتُ فِيهِمْ»(٢).

=

وفي رِوَايَة بلفظ: «**لَوْ حَمِدَتْ نَفْسِي لَقَلِيَتِ النَّاسَ**».

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَد في «الزُّهْد» (رَقْم ١٣٦٣)، وابن أبي الدنيا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٢٥)، بإِسْنَاد صحيح.

(٢) أَخْرَجَهُ ابن سعد في «الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ» (٩/ ٢٠٨، ترجمة بكر بن عبد الله المزني: ٣٩١٢)، وعباس الدوري في «تاريخ ابن معين» (٤/ رَقْم ٤٥٧٠)، وابْن أَبِي الدُّنْيَا في

=

وَقَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ: «إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ، كُنْتُ عَنْهُمْ بِمَعْزِلٍ»(١).

وَلَمَّا احْتُضِرَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو الْأَشْهَبِ وَحَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، فَقَالَ لَهُ حَمَّادُ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أَلَيْسَ قَدْ أَمِنْتَ مِمَّا كُنْتَ تَخَافُهُ، وَتَقْدُمُ عَلَىٰ مَنْ تَرْجُوهُ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؟

فَقَالَ: يَا أَبَا سَلَمَةَ، أَتَطْمَعُ لِمِثْلِي أَنْ يَنْجُوَ مِنَ النَّارِ؟!!

قَالَ: إِي وَاللهِ، إِنِّي لَأَرْجُو لَكَ ذَلِكَ»(٢).

أَتَطْمَعُ لِمِثْلِي أَنْ أَنْجُوَ مِنَ النَّارِ؟!!

وَعَنْ مُسْتَلِمِ(٣) بْنِ سَعِيدٍ الْوَاسِطِيِّ، فِيمَا ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «الْبِدَايَةِ»(٤)، قَالَ: «أَخْبَرَنِي حَمَّادُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ زَيْدٍ، أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ، قَالَ: خَرَجْنَا فِي

=

«مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٢٦)، والدينوري في «المجالسة» (٦/ رَقْم ٢٦٩٧)، والْبَيْهَقِيّ في «شُعَب الْإِيمَانِ» (١٠/ رَقْم ٧٩٠٢ و٧٩٠٣)، بإِسْنَاد صحيح.

(١) أَخْرَجَهُ الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠)، وابْن أَبِي الدُّنْيَا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٢٨)، وابن عدي في مقدمة «الكامل» (١/ ١٤٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٥، ترجمة أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ: ٢٠١)، والْبَيْهَقِيّ في «الشعب» (١٠/ رَقْم ٧٩٠٠)، بإِسْنَاد صحيح.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْن أَبِي الدُّنْيَا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٣٠)، بإِسْنَاد صحيح.

(٣) هو ابْنُ سَعِيدٍ الْوَاسِطِيُّ: ثقة، انظر: «التاريخ الكبير» للبخاري (٨/ ترجمة ٢١٨٢)، و«الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٨/ ترجمة ٢٠٠٠).

(٤) «البداية والنهاية» لابن كثير، الطبعة الأولىٰ (١٤١٨هـ)، دار هجر: القاهرة- (١٢/ ٢٦٦).

=

غَزْوَةٍ إِلَىٰ (كَابُولَ)، وَفِي الْجَيْشِ صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ، فَنَزَلَ النَّاسُ عِنْدَ الْعَتَمَةِ، فَصَلَّوْا، ثُمَّ اضْطَجَعَ.

فَقُلْتُ: لَأَرْمُقَنَّ عَمَلَهُ، فَالْتَمَسَ غَفْلَةَ النَّاسِ، حَتَّىٰ إِذَا قُلْتُ: هَدَأَتِ الْعُيُونُ، وَثَبَ، فَدَخَلَ غَيْضَةً قَرِيبًا مِنَّا، فَدَخَلْتُ عَلَىٰ إِثْرِهِ، فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، وَجَاءَ أَسَدٌ حَتَّىٰ دَنَا مِنْهُ، فَصَعِدْتُ فِي شَجَرَةٍ، فَتُرَاهُ الْتَفَتَ أَوْ عَدَّهُ جَرْوًا، فَلَمَّا سَجَدَ، قُلْتُ: الْآنَ يَفْتَرِسُهُ الْأَسَدُ، فَجَلَسَ، ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا السَّبُعُ، اطْلُبِ الرِّزْقَ فِي مَكَانٍ آخَرَ، فَوَلَّىٰ وَإِنَّ لَهُ لَزَئِيرًا.

أَقُولُ: تَصَدَّعُ الْجِبَالُ مِنْهُ، قَالَ: فَمَا زَالَ كَذَلِكَ يُصَلِّي، حَتَّىٰ كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ، جَلَسَ، فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَىٰ بِمَحَامِدَ لَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِهَا، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ، وَمِثْلِي يَصْغُرُ أَنْ يَجْتَرِئَ أَنْ يَسْأَلَكَ الْجَنَّةَ!!

قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ، وَأَصْبَحَ كَأَنَّهُ بَاتَ عَلَىٰ الْحَشَايَا، وَأَصْبَحْتُ وَبِي مِنَ الْفَتْرَةِ شَيْءٌ؛ اللهُ بِهِ عَالِمٌ».

=

والأثر أَخْرَجَهُ ابن المبارك في «الزُّهْد» (رَقْم ٨٦٣)، ومن طريقه: الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٧٩ - ٨٠، ترجمة صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ)، وابْن أَبِي الدُّنْيَا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٣٣)، وفي «مجابي الدعوة» (رَقْم ٥٥)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ رَقْم ٨٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٤٠، ترجمة صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ: ١٨٤)، والْبَيْهَقِيّ في «الشعب» (٤/ رَقْم ٢٩٤١)، عَنْ الْمُسْتَلِمِ بْنِ سَعِيدٍ الْوَاسِطِيِّ،...بإِسْنَاده، مثله، وإِسْنَاده لا بأس به.

وَمَا بَاتَ قَائِمًا، وَلَا مِنَ السَّبُعِ مُشْفِقًا، وَلَا لَهُ آمِرًا وَنَاهِيًا، وَأَمَّا صِلَةُ فَإِنَّهُ لَمَّا أَصْبَحَ، كَأَنَّمَا بَاتَ عَلَىٰ الْحَشَايَا، وَهُوَ يُعَامِلُ رَبَّهُ، وَيَفِرُّ بِقَلْبِهِ مِنْ مَوَاطِنِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، فَيَنْتَظِرُ حَتَّىٰ تَهْدَأَ الْعُيُونُ، وَتَلْتَذَّ بِالْغُمْضِ أَجْفَانُهَا، ثُمَّ يَقُومُ يَتَوَضَّأُ خَالِيًا بِرَبِّهِ.

وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِهِ مِنْ حَالٍ، فَإِنَّهُ يَقُولُ لَمَّا أَصْبَحَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ، وَمِثْلِي يَصْغُرُ أَنْ يَجْتَرِئَ أَنْ يَسْأَلَكَ الْجَنَّةَ!!».

وَأَنْتَ خَبِيرٌ أَنَّ اللهَ إِنْ أَعَاذَهُ مِنَ النَّارِ، وَأَجَارَهُ مِنَ النَّارِ، أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ وَنِعْمَ الْقَرَارُ، وَلَكِنَّهُ يَعْرِفُ نَفْسَهُ، وَقَدْرَ رَبِّهِ، فَيَتَأَدَّبُ فِي الْخِطَابِ، فَهَذَا أَدَبٌ فِي الْخِطَابِ بِغَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

قَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: «إِنِّي لَأَعُدُّ مِئَةَ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ -أَيْ أَعْرِفُهَا- مَا أَعْلَمُ عَنْهَا فِي نَفْسِي مِنْهَا وَاحِدَةً»(١).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ: «لَوْ كَانَ لِلذُّنُوبِ رِيحٌ، مَا قَدَرَ أَحَدٌ، أَنْ يَجْلِسَ إِلَيَّ»(٢).

---

(١) أَخْرَجَهُ أبو القاسم البغوي في «حَدِيث علي بن الجعد الجوهري» (رَقْم ١٣٣٥)، وابْن أَبِي الدُّنْيَا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٨، ترجمة يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: ٢٠٢)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٣٢/ ٥٢٤، ترجمة ٧١٨٠)، من طريق: سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ يُونُسَ بْنَ عُبَيْدٍ، قَالَ: «**إِنِّي لَأَعُدُّ مِائَةَ خَصْلَةٍ**...» فذكره.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْن أَبِي الدُّنْيَا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٣٧)، والدينوري في «المحالسة» (١/ رَقْم ١٥٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٩، ترجمة مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ: ١٩٩)، وابن =

إِي وَاللهِ، لَوْ كَانَ لِلذُّنُوبِ رِيحٌ، مَا قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَجْلِسَ إِلَيَّ، وَلَكِنَّهُ السَّتْرُ، اللَّهُمَّ أَدِمْ عَلَيْنَا سَتْرَكَ وَعَافِيَتَكَ.

قَالَ أَبُو حَفْصٍ(١): «مَنْ لَمْ يَتَّهِمْ نَفْسَهُ عَلَىٰ دَوَامِ الْأَوْقَاتِ، وَلَمْ يُخَالِفْهَا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَلَمْ يَجُرَّهَا إِلَىٰ مَكْرُوهِهَا فِي سَائِرِ أَوْقَاتِهِ؛ كَانَ مَغْرُورًا، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا بِاسْتِحْسَانِ شَيْءٍ مِنْهَا فَقَدْ أَهْلَكَهَا»(٢).

فَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَىٰ الْمَهَالِكِ، مُعِينَةٌ لِلْأَعْدَاءِ، طَامِحَةٌ إِلَىٰ كُلِّ قَبِيحٍ، مُتَّبِعَةٌ لِكُلِّ سُوءٍ، فَهِيَ تَجْرِي بِطَبْعِهَا فِي مَيْدَانِ الْمُخَالَفَةِ.

وَأَعْرَفُ النَّاسِ بِهَا أَشَدُّهُمْ إِزْرَاءً عَلَيْهَا وَمَقْتًا لَهَا.

وَمَقْتُ النَّفْسِ فِي ذَاتِ اللهِ مِنْ صِفَاتِ الصِّدِّيقِينَ، وَيَدْنُو الْعَبْدُ بِهِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ أَضْعَافَ أَضْعَافِ مَا يَدْنُو بِالْعَمَلِ.

=

عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ١٥٨، ترجمة ٧٠٨٠)، وابن الجوزي في «المنتظم» (٧/ ٢٠٤- ٢٠٥، ترجمة ٦٥٢)، بإِسْنَاد صحيح.

(١) أَبُو حَفْصٍ، هو: عَمْرُو بنُ سَلْمٍ النَّيْسَابُوْرِيُّ الصوفي الحداد، أَوَّلُ مَنْ أَظهر طَرِيْقَةَ التصوُّف بِنَيْسَابُوْرَ، تُوُفِّيَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّيْنَ وَمائَتَيْنِ، انظر ترجمته: «تاريخ بغداد» للخطيب (١٤/ ترجمة ٦٦٢٤)، و«المنتظم» لابن الجوزي (١٢/ ترجمة ١٧١٧)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٢/ ترجمة ١٩٠).

(٢) «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٨٣ - ٢٨٤).

مَــنْ لِــي بِمِثْــلِ سَــيْرِكَ الْمُــدَلَّلِ تَمْشِي الْهُوَيْنَا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ(١)

عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: «إِنَّ قَوْمًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانُوا فِي مَسْجِدٍ لَهُمْ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فَجَاءَ شَابٌّ حَتَّىٰ قَامَ عَلَىٰ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: لَيْسَ مِثْلِي يَدْخُلُ مَعَكُمْ، أَنَا صَاحِبُ الذُّنُوبِ، أَنَا صَاحِبُ الْآثَامِ، يُزْرِي عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ ﷻ إِلَىٰ نَبِيِّهِمْ إِنَّ فُلَانًا صِدِّيقٌ»(٢)»(٣).

وَأَمَّا مَنْ شَمَخَ بِأَنْفِهِ، وَذَاقَ طَعْمَ نَفْسِهِ، وَمَشَىٰ فِي الْأَرْضِ تَكَبُّرًا وَتَجَبُّرًا، فَيُوشِكُ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ، وَهَذَا مِنْ أَمْقَتِ الْخَلْقِ إِلَىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ لِأَنَّ الْعِزَّ للهِ، وَالْعَظَمَةَ للهِ، وَالْكِبْرِيَاءَ للهِ، وَالْكِبْرَ للهِ وَحْدَهُ،

---

(١) البيت لشيخ الإسلام ابن تيمية، أَخْرَجَهُ ابن ناصر الدين الدمشقي في «الرد الوافر» (ص٨٥، ترجمة ابْن القلانسي: ٤٢)، وابن تغري في «المنهل الصافي» (١/ ٥٢ - ٥٣)، قال الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان اليونيني في مشيخته، قال: شيخنا مجد الدين، -يعني: ابن القلانسي-، سمعت شيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية يقول: «**من لي بمثل سيرك المدلّل... تمشي رويدا وتجيء في الأول**»، وقد ذكره تلميذه ابن القيم في «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (٣/ ٩ و١٣٨)، وفي غيره بدون عزوه.

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَد في «الزُّهْد» (رَقْم ٥١٢)، وابْن أَبِي الدُّنْيَا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٣١)، وابن المقرئ في «معجمه» (رَقْم ٢٧٢)، بِإِسْنَاد حسن، مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: «**إِنَّ قَوْمًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ**...» فذكره، وروي مسندا إلىٰ كعب الأحبار، والخبر من الإسرائيليات.

(٣) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١/ ١٤٣ - ١٤٩).

فَكُلُّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِاللهِ جَلَّوَعَلَا وَحْدَهُ، وَمَنْ نَازَعَ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فِي شَيْءٍ مِنْهُ، قَصَمَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَلَا يُبَالِي.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ/ ٥-١٠-٢٠١٢م.

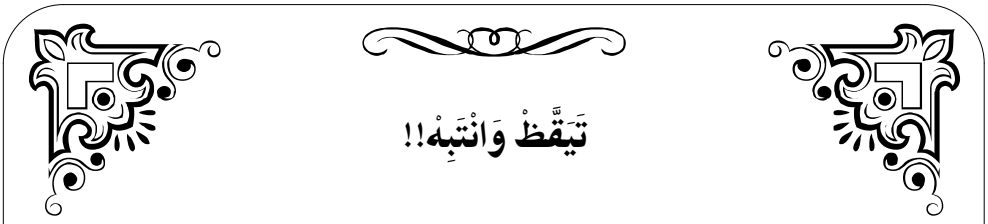

تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ!!

«تَيَقَّظْ!! فَإِنَّ الْيَقَظَةَ هِيَ أَوَّلُ مَفَاتِيحِ الْخَيْرِ، فَإِنَّ الْغَافِلَ عَنْ الِاسْتِعْدَادِ لِلِقَاءِ رَبِّهِ وَالتَّزَوُّدِ لِمَعَادِهِ؛ بِمَنْزِلَةِ النَّائِمِ، بَلْ أَسْوَءُ حَالًا مِنْهُ، فَإِنَّ الْغَافِلَ يَعْلَمُ وَعْدَ اللهِ وَوَعِيدَهُ، وَمَا يَتَقَاضَاهُ أَوَامِرُ الرَّبِّ تَعَالَىٰ وَنَوَاهِيهِ وَأَحْكَامُهُ مِنَ الْحُقُوقِ، لَكِنْ يَحْجُبُهُ عَنْ حَقِيقَةِ الْإِدْرَاكِ، وَيُقْعِدُهُ عَنْ الِاسْتِدْرَاكِ؛ سِنَةُ الْقَلْبِ، وَهِيَ غَفْلَتُهُ، الَّتِي رَقَدَ فِيهَا فَطَالَ رُقُودُهُ، وَرَكَدَ وَأَخْلَدَ إِلَىٰ نَوَازِعِ الشَّهَوَاتِ، فَاشْتَدَّ إِخْلَادُهُ، وَانْغَمَسَ فِي غِمَارِ الشَّهَوَاتِ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الْعَادَاتُ وَمُخَالَطَةُ أَهْلِ الْبَطَالَاتِ، وَرَضِيَ بِالتَّشَبُّهِ بِأَهْلِ إِضَاعَةِ الْأَوْقَاتِ، فَهُوَ فِي رُقَادِهِ مَعَ النَّائِمِينَ، وَفِي سَكْرَتِهِ مَعَ الْمَخْمُورِينَ.

فَمَتَىٰ انْكَشَفَ عَنْ قَلْبِهِ سِنَةُ هَذِهِ الْغَفْلَةِ بِزَجْرَةٍ مِنْ زَوَاجِرِ الْحَقِّ فِي قَلْبِهِ، اسْتَجَابَ فِيهَا لِوَاعِظِ اللهِ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، أَوْ هِمَّةٍ عَلِيَّةٍ أَثَارَهَا مِعْوَلُ الْفِكْرِ فِي الْمَحَلِّ الْقَابِلِ، فَضَرَبَ بِمِعْوَلِ فِكْرِهِ، وَكَبَّرَ تَكْبِيرَةً أَضَاءَتْ لَهُ مِنْهَا قُصُورُ الْجَنَّةِ فَقَالَ:

أَلَا يَا نَفْسُ وَيْحَكِ سَاعِدِينِي ... بِسَعْيٍ مِنْكِ فِي ظُلَمِ اللَّيَالِي

لَعَلَّــكِ فِــي الْقِيَامَــةِ أَنْ تَفُــوزِي بِطِيبِ الْعَيْشِ فِي تِلْكَ الْعَلَالِي[1]

فَأَنَارَتْ تِلْكَ الْفِكْرَةُ نُورًا، رَأَىٰ فِي ضَوْئِهِ مَا خُلِقَ لَهُ، وَمَا سَيَلْقَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ حِينِ الْمَوْتِ إِلَىٰ دُخُولِ دَارِ الْقَرَارِ، وَرَأَىٰ سُرْعَةَ انْقِضَاءِ الدُّنْيَا، وَعَدَمَ وَفَائِهَا لِبَنِيهَا، وَقَتْلَهَا لِعُشَّاقِهَا، وَفِعْلَهَا بِهِمْ أَنْوَاعَ الْمَثُلَاتِ.

فَنَهَضَ فِي ذَلِكَ الضَّوْءِ عَلَىٰ سَاقِ عَزْمِهِ، قَائِلًا: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، فَاسْتَقْبَلَ بَقِيَّةَ عُمُرِهِ الَّتِي لَا قِيمَةَ لَهَا، مُسْتَدْرِكًا بِهَا مَا فَاتَ، مُحْيِيًا بِهَا مَا أَمَاتَ، مَسْتَقِيلًا بِهَا مَا تَقَدَّمَ لَهُ مِنَ الْعَثَرَاتِ، مُنْتَهِزًا فُرْصَةَ الْإِمْكَانِ الَّتِي إِنْ فَاتَتْ، فَاتَهُ جَمِيعُ الْخَيْرَاتِ.

ثُمَّ يَلْحَظُ فِي نُورِ تِلْكَ الْيَقَظَةِ وُفُودَ نِعْمَةِ رَبِّهِ عَلَيْهِ، مِنْ حِينِ اسْتَقَرَّ فِي الرَّحِمِ إِلَىٰ وَقْتِهِ، وَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِيهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، لَيْلًا وَنَهَارًا، يَقَظَةً وَمَنَامًا، سِرًّا وَعَلَانِيَةً.

فَلَوِ اجْتَهَدَ فِي إِحْصَاءِ أَنْوَاعِهَا لَمَا قَدَرَ، وَيَكْفِي أَنَّ أَدْنَاهَا نِعْمَةُ النَّفَسِ، وَلِلَّهِ عَلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ نِعْمَةٍ، بِأَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ نَفَسٍ، وَكُلُّ نَفَسٍ نِعْمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، لَا يَعْلَمُ حَقَّهَا وَقَدْرَهَا إِلَّا الْمَصْدُورُ الَّذِي يُقَاتِلُ مِنْ أَجْلِ الْهَوَاءِ، فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ وَلَا تُعَدُّ.

---

(١) البيتان لعابد من بني سعد كما في «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٢٦٧، ترجمة ٦٣٤).

ثُمَّ يَرَىٰ فِي ضَوْءِ ذَلِكَ النُّورِ، أَنَّهُ آيِسٌ مِنْ حَصْرِهَا وَإِحْصَائِهَا، عَاجِزٌ عَنْ أَدَاءِ حَقِّهَا، وَأَنَّ الْمُنْعِمَ بِهَا، إِنْ طَالَبَهُ بِحُقُوقِهَا، اسْتَوعَبَتْ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ حَقُّ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا.

فَيَتَيَقَّنُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ لَا مَطْمَعَ لَهُ فِي النَّجَاةِ إِلَّا بِعَفْوِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ، ثُمَّ يَرَىٰ فِي ضَوْءِ تِلْكَ الْيَقَظَةِ أَنَّهُ لَوْ عَمِلَ أَعْمَالَ الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْبِرِّ؛ لَاحْتَقَرَهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ جَنْبِ عَظَمَةِ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا.

مَا يَبْلُغُ عَمْلُكَ، وَمَا يَكُونُ؟!!

فَائِدَتُهُ رَاجِعَةٌ إِلَيْكَ، وَعَائِدَتُهُ مَرْدُودَةٌ عَلَيْكَ، وَاللهُ غَنِيٌّ عَنْكَ وَعَنْهُ وَعَنِ الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا؛ لَا يُمْكِنُ لِعَبْدٍ أَنْ يَعْلَمَ مَا يَسْتَحِقُّهُ لِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، هَذَا لَوْ كَانَتْ أَعْمَالُكَ مِنْكَ، فَكَيْفَ وَهِيَ مَجُرَّدُ فَضْلِ اللهِ وَمِنَّتُهُ وَإِحْسَانُهُ، حَيْثُ يَسَّرَهَا لَكَ، وَأَعَانَكَ عَلَيْهَا، وَهَيَّأَهَا لَكَ، وَشَاءَهَا مِنْكَ.

وَلَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ لَهُ سَبِيلٌ إِلَىٰ تَحْصِيلِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، لَوْلَا ذَلِكَ مَا كَانَ لِلْعَبْدِ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ تَحْصِيلِ شَيْءٍ، فَحِينَئِذٍ لَا يَرَىٰ الْعَبْدُ أَعْمَالَهُ مِنْهُ، بَلْ يَرَىٰ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ مُتَفَضِّلًا عَلَيْهِ، مُمْتَنًّا بِالْإِحْسَانِ مِنْهُ، وَأَنَّ هَذَا الْإِحْسَانَ مِنَ اللهِ، لَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الشَّرُّ وَأَسْبَابُهُ، وَمَا بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ وَحْدَهُ، صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ بِهَا عَلَيْهِ وَفَضْلًا مِنْهُ سَاقَهُ إِلَيْهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَحِقَّهُ بِسَبَبٍ، وَيَسْتَأْهِلَهُ بِوَسِيلَةٍ، فَيَرَىٰ رَبَّهُ وَوَلِيَّهُ وَمَعْبُودَهُ أَهْلًا لِكُلِّ خَيْرٍ، وَيَرَىٰ نَفْسَهُ أَهْلًا لِكُلِّ شَرٍّ، وَهَذَا أَسَاسُ جَمِيعِ

الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَرْفَعُهَا وَيَجْعَلُهَا فِي دِيوَانِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ»(١).(*).

ꕥꕥꕥ

(١) «كتاب الروح» لابن القيم، الطبعة الأولىٰ (١٤٣٢هـ)، دار عالم الْفَوَائِدُ: مكة- (ص ٦٣١ - ٦٣٤).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ/ ٥-١٠-٢٠١٢م.

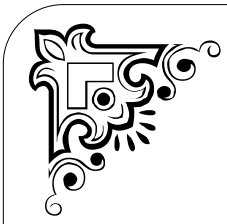

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ وَتَغْيِيرُهَا بِدَايَةُ طَرِيقِ إِصْلَاحِ الْأُمَّةِ

عِبَادَ اللهِ! مَا أَعْظَمَ الْغَفْلَةَ!! وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَعلَمَهَا، فَرَاقِبْ نَفْسَكَ فِي خَرِيطَةِ يَوْمِكَ، وَتَأَمَّلْ مُحْصِيًا عَلَىٰ ذَاتِكَ غِيبَتَكَ، وَكَذِبَكَ.

لَقَدْ عَمَّتِ الْفَوْضَىٰ السَّاحَةَ، وَمَا هَكَذَا يَكُونُ جِيلُ النَّصْرِ الْمَنْشُودُ، الَّذِي يَمْتَلِكُ زِمَامَ مَقَالِيدِ الْعَالَمِ، إِنَّ الْعَالَمَ لَا يُمْتَلَكُ زِمَامُهُ بِيَدِ الثُّلَّةِ الصَّالِحَةِ بِالْكَلَامِ، وَلَا بِالتَّنْظِيرِ، وَإِنَّمَا بِالنُّفُوسِ الصَّالِحَةِ، وَالْأَنْفُسِ الْمُطْمَئِنَّةِ، وَالْقُلُوبِ الزَّكِيَّةِ، وَالْأَرْوَاحِ الْمُطْمَئِنَّةِ.

وَهَذَا هُوَ الْجِيلُ الَّذِي نَشَّأَهُ الرَّسُولُ ﷺ وَرَبَّاهُ، فَمَلَكَ الْعَالَمَ كُلَّهُ، وَدَانَ الْعَالَمُ كُلَّهُ لـ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عَنْ وَصْفِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ: «**مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»(١).

مَا الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ؟

«تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ عَشْرَ آيَاتٍ، عَشْرَ آيَاتٍ، لَا يُجَاوِزُوهُنَّ، حَتَّىٰ يَفْقَهُوهُنَّ، وَيَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»(٢).

---

(١) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

(٢) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

هَلْ كَانَ أَصْحَابُهُ يُفَاوِتُونَ بَيْنَ الْقُوَّتَيْنِ؛ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ؟

هَلْ حَرَصُوا عَلَىٰ الْكَمِّ يَوْمًا دُونَ الْكَيْفِ؟

مَا الْتَفَتُوا إِلَيْهِ.

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وَكَانُوا فِي بَدْرٍ ثُلَّةً صَالِحَةً مُؤْمِنَةً مُوَحِّدَةً، وَكَانُوا فِي حُنَيْنَ كَثْرَةً كَاثِرَةً، وَتَفَاوَتَ مَا بَيْنَ النَّتِيجَتَيْنِ بَدْءًا وَمُنْتَهًىٰ، فَتَأَمَّلْ...

فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ لَا يَصْلُحُ آخِرُهَا إِلَّا بِمَا صَلُحَ عَلَيْهِ أَوَّلُهَا، بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

يَا طُلَّابَ الْعِلْمِ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ وَمَنْهَجِ السَّلَفِ، يَقُولُ نَبِيُّكُمْ ﷺ فِي بَيَانِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»(١).

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ فِي «الجامع» (رَقْم ٢٦٤١)، من حَدِيث: عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِي مَا أَتَىٰ عَلَىٰ بني إسرائيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَىٰ أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بني إسرائيل تَفَرَّقَتْ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**».

قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**».

والحَدِيث حسن إِسْنَاده لغيره الْأَلْبَانِيّ فِي «صحيح الجامع» (رَقْم ٥٣٤٣)، وفي هامش «صلاة العيدين» (ص ٤٦، التعليق ١)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٣٣٥، رَقْم ١٣٤٨).

وَهَذَا أَصْلٌ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ: «أَخْبَرَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ عَشْرَ آيَاتٍ، لَا يُجَاوِزُوهُنَّ، حَتَّىٰ يَفْقَهُوهُنَّ، وَيَعْمَلُوا بِهِنَّ»(١).

إِنَّمَا تَتَعَلَّمُ لِتَعْمَلَ، أَمَّا هَذَا الْهَرَجُ الْهَارِجُ، وَهَذَا الْعَبَثُ الْعَابِثُ، فَلَا يَزِيدُكَ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا.

تَيَّقَظْ، وَتُبْ، وَأَنِبْ، وَاسْتَغْفِرْ، وَعُدْ، وَاقْرِنْ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَدَعْكَ مِنْ بَهَارِجِ الزِّينَةِ.

*** حَاسِبْ نَفْسَكَ! هَلْ خَلَا مَجْلِسٌ لَكَ مِنْ غِيبَةٍ؟!!**

يَا أَخِي! إِنَّ الْآفَاتِ قَدْ عَمَّتْ فَطَمَّتْ، وَاسْتَحوَذَتْ عَلَىٰ الْقُلُوبِ، وَإِنِّي سَائِلُكَ عَنْ أَمْرٍ؛ وَأَجِبْ أَنْتَ عَنْهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ:

هَلْ خَلَا مَجْلِسٌ لَكَ مِنْ غِيبَةٍ؟!

بِاللهِ عَلَيْكَ أَجِبْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ؛ هَلْ خَلَا مَجْلِسٌ لَكَ مِنْ غِيبَةٍ؟!!

وَالْغِيبَةُ مِنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَعَظَائِمِ الذُّنُوبِ، وَهِيَ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ، بِمَعْنَىٰ: أَنَّهُ مَهْمَا اسْتَغْفَرَ الْعَبْدُ وَتَابَ وَأَنَابَ؛ فَحَقُّ الْعَبْدِ لَا بُدَّ مِنْ تَوْفِيَتِهِ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ يَوْمَ تُنْصَبُ الْمَوَازِينُ.

فَهَلْ خَلَا مَجْلِسٌ لَكَ -أَنْتَ... أَنْتَ- مِنْ غِيبَةٍ؟!!

---

(١) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

مَنْ أَنْتَ؟!!

مَا تَكُونُ؟!!

أَلَا تُفِيقُ؟!!

أَلَا تَتيَقَّظُ؟!!

أَلَا تَسْتَحِي؟!!

اتَّقِ اللهَ رَبَّكَ.(*).

*** أَمْرَاضُ الْأُمَّةِ وَعَجْزُهَا وَذُلُّهَا بِسَبَبِ ذُنُوبِ أَبْنَائِهَا!!**

عَلَيْنَا أَنْ نَدُلَّ الْأُمَّةَ عَلَىٰ أَنْ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ ذُنُوبِ أَفْرَادِهَا، وَلَا مَخْلَصَ لَهُمْ مِمَّا تَوَرَّطُوا فِيهِ إِلَّا بِإِحْدَاثِ التَّوْبَةِ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَإِنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا قَدْ عَاقَبَ مَنْ كَانَ مَعَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا خَالَفُوا أَمْرًا وَاحِدًا مِنْ أَوَامِرِ النَّبِيِّ ﷺ.

أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَلْزَمُوا الْجَبَلَ، وَأَلَّا يَنْزِلُوا عَنْهُ وَإِنْ رَأَوْا الْمُشْرِكِينَ يَرْكَبُونَ أَكْتَافَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا دَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ، وَبَدَأَ مَنْ فِي السَّاحَةِ يَجْمَعُ الْغَنَائِمَ، وَتَوَلَّىٰ الْمُشْرِكُونَ مُدْبِرِينَ، نَزَلَ مَنْ نَزَلَ عَنِ الْجَبَلِ مِنَ الرُّمَاةِ، فَكَانَتِ الْكَسْرَةُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ/ ٥-١٠-٢٠١٢م.

وَبَيَّنَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَنَّ ذَلِكَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَالنَّبِيُّ بَيْنَهُمْ ﷺ، بَلْ أَصَابَهُ ﷺ مَا أَصَابَهُ لَمَّا وَقَعَ فَجُحِشَ جَنْبُهُ -أَيْ جُرِحَ-، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَدَخَلَتْ حَلْقَةٌ مِنْ حَلْقَاتِ الْمِغْفَرِ فِي وَجْنَتِهِ ﷺ، وَتَصَايَحَ الْكُفَّارُ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ﷺ، وَقُتِلَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ شَهِيدًا حَمِيدًا سَبْعُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-.

كُلُّ ذَلِكَ لِلْمُخَالَفَةِ فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ، أَفَتَحْسَبُ الْأُمَّةُ أَنَّ أَفْرَادَهَا أَكْرَمُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟!!

فَتَعْصِي الْأُمَّةُ أَمْرَهُ وَتَسْتَنْزِلُ خَيْرَهُ، وَتَطْلُبُ تَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ بِالْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، بِالْخُرُوجِ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ وَمَنْهَجِ السَّلَفِ، وَالْابْتِدَاعِ وَالْإِحْدَاثِ فِي دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ بِتَحْزِيبِ الْأُمَّةِ أَحْزَابًا كَفِعْلِ السَّابِقِينَ مِنَ الْهَالِكِينَ، بِجَعْلِ الْبَأْسِ بَيْنَهُمْ أَحْزَابًا مُتَنَافِرَةً وَجَمَاعَاتٍ مُتَنَاحِرَةً، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ؟!!

وَكُلُّهَا مُخَالَفَاتٌ مِنْ أَعْظَمِ مَا تَكُونُ الْمُخَالَفَاتُ، وَأَيْنَ هِيَ مِنْ تَرْكِ الرُّمَاةِ الْجَبَلَ؛ مُخَالَفَةً لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟!!

فَعَلَيْنَا أَنْ نَبْدَأَ مِنْ حَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ نَبْدَأَ، عَلَيْنَا أَنْ نَتُوبَ إِلَىٰ اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا، لَقَدْ اسْتَمْرَأْنَا الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ! أَلِفْنَاهَا حَتَّىٰ اسْتَمْرَأْنَاهَا وَاسْتَحْلَيْنَاهَا!! فَانْعَكَسَ الْأَمْرُ عَلَيْنَا؛ لِأَنَّ «**الْعَبْدَ إِذَا ارْتَكَبَ الْمَعْصِيَةَ وَالذَّنْبَ؛ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ**

نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، حَتَّىٰ يَصِيرَ الْقَلْبُ أَسْوَدَ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»(١).

قُلُوبٌ قَاسِيَةٌ، وَأَرْوَاحٌ جَاسِيَةٌ، وَأَبْدَانٌ عَنِ الطَّاعَةِ نَافِرَةٌ، وَنُفُوسٌ فِي أَوْدِيَةِ الضَّلَالِ حَائِرَةٌ، إِلَىٰ مَتَىٰ؟

عَلَيْنَا أَنْ نَتُوبَ، إِنْ تُبْنَا وَصَدَقْنَا مَعَ اللهِ فِي تَوْبَتِنَا؛ رَفَعَ اللهُ كُرْبَتَنَا، وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا، وَتَقَبَّلَ تَوْبَتَنَا وَأَوْبَتَنَا.(*).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ أُخْرَىٰ مُنَاقِضَةٍ لِلْأُولَىٰ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ سَيِّءٍ إِلَىٰ حَسَنٍ؛ غَيَّرَ اللهُ أَحْوَالَهُمْ مِنْ سَيِّءٍ إِلَىٰ حَسَنٍ، وَإِنْ غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ حَسَنٍ إِلَىٰ قَبِيحٍ؛ غَيَّرَ اللهُ أَحْوَالَهُمْ، وَأَحَلَّ بِهِمْ نِقْمَتَهُ.(*/٢).

وَمِفْتَاحُ التَّغْيِيرِ -عِبَادَ اللهِ- هُوَ مَعْرِفَةُ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، مَعْرِفَةُ التَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، كُلُّ عِلْمٍ يَشْرُفُ بِشَرَفِ مَعْلُومِهِ، وَهَذَا الْعِلْمُ

---

(١) جزء من حَدِيث الْفِتَن الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ، الذي أَخْرَجَهُ مُسْلِم في «صَحِيحه» (رَقْم ١٤٤)، من رِوَايَة: حُذَيْفَةَ رضي الله عنه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَةِ: «سَبَبُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ» - الْجُمُعَةُ ١٤ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٣٣هـ/ ٦-٤-٢٠١٢م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [سورة الرعد: ١١].

أَشْرَفُ الْعُلُومِ، عِلْمُ التَّوْحِيدِ، عِلْمُ الْعَقِيدَةِ، هَذَا الْعِلْمُ هُوَ أَشْرَفُ الْعُلُومِ؛ لِأَنَّ مَعْلُومَهُ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَبِصِفَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَبِأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَتَوَجَّبُ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوصَفَ بِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَمَا يُنَزَّهُ عَنْهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْمَعَائِبِ وَالنَّقَائِصِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْعِلْمِ الشَّرِيفِ.(*).

فَالْفَرْدُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِصَلَاحِ عَقِيدَتِهِ وَقَلْبِهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١).

وَالْمُجْتَمَعُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِصَلَاحِ أَفْرَادِهِ، فَإِذَا صَلُحَ الْفَرْدُ؛ صَلُحَ الْمَجْمُوعُ.(*/٢).

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يُرِيدُ مِنَّا أَنْ نَتَغَيَّرَ، أَنْ نَتَحَرَّرَ مِنْ أَسْرِ الْعَادَاتِ وَمِنْ قَيْدِ التَّقَالِيدِ الَّتِي قَدْ أَوْثَقَتْ أَرْجُلَنَا فِي الْأَرْضِ بِسَلَاسِلَ تَمِيدُ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ: «مِفْتَاحُ التَّغْيِيرِ» - الِاثْنَيْنِ ٨ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٢هـ/ ٨- ٨- ٢٠١١م.

(١) جزء من حَدِيث: النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**،... »، الحَدِيث، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيّ فِي «صَحِيحه» (رَقْم ٥٢ و ٢٠٥١)، ومُسْلِم فِي «صَحِيحه» (رَقْم ١٥٩٩).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ تَفْرِيغٍ لِمَقْطَعِ: «إِصْلَاحُ الْفَرْدِ يَصْلُحُ بِهِ الْمَجْمُوعُ».

الْأَرْضَ وَلَا تَمِيدُ، يُرِيدُ مِنَّا رَبُّنَا أَنْ نَتَغَيَّرَ، وَأَنْ نَتَحَرَّرَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَىٰ، وَأَنْ نَخْرُجَ مِنْ قَبْضَةِ الْعَادَاتِ إِلَىٰ مَرْضَاةِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ سُنَّةِ سَيِّدِ الْكَائِنَاتِ ﷺ.(*).

وَلَنْ تُفْلِحَ الْأُمَّةُ وَلَنْ تَصِلَ إِلَىٰ غَرَضِهَا، وَلَنْ تُحَصِّلَ مَقْصُودَهَا إِلَّا بِالْعَوْدَةِ إِلَىٰ كِتَابِ رَبِّهَا وَسُنَّةِ نَبِيِّهَا ﷺ بِفَهْمِ سَلَفِهَا الصَّالِحِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ أَجْمَعِينَ-.

فَهَذِهِ سَبِيلُ النَّجَاةِ، لَا سَبِيلَ لِلنَّجَاةِ سِوَاهَا، وَأَمَّا التَّخَبُّطُ، وَأَمَّا هَذَا الْهَرَجُ الَّذِي تُعَانِي مِنْهُ الْأُمَّةُ؛ فَهَذَا هُوَ الْمَضِيقُ الَّذِي لَا مَخْرَجَ لَهُ، وَالْمَأْزِقُ الَّذِي لَا نَجَاةَ مِنْهُ إِلَّا بِأَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ عَلَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ بِلَا تَخَالُفٍ وَلَا تَدَابُرٍ، وَلَا شَحْنَاءَ وَلَا بَغْضَاءَ.(*/٢).

قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَقَدْ كُنْتُمْ أَذَلَّ الْأُمَمِ -لَا هُنَا وَلَا هُنَاكَ، لَيْسُوا مَعْدُودِينَ فِي أُمَمِ الْأَرْضِ، بَلْ لَيْسُوا مَعْدُودِينَ مِنَ الْأَحْيَاءِ، الرُّومُ، وَالْفُرْسُ، وَالْأَحْبَاشُ، وَالصَّقَالِبَةُ، وَالْقِبْطُ، وَالْأَرْمَنُ، وَالْبَرْبَرُ، وَأَجْنَاسُ الْأَرْضِ؛ كَانَتْ مَعْدُودَةً فِي الْأَنَاسِيِّ عَدًّا، وَهَؤُلَاءِ لَا ذِكْرَ لَهُمْ هُنَالِكَ وَلَا هُنَا- فَأَتَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ...».

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَزْكِيَةُ النَّفْسِ وَتَحْرِيرُ الْقُدْسِ» - الْجُمُعَةُ ٢٦ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ ١٤٣٩هـ/ ١٥-١٢-٢٠١٧م.

بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَصِرْتُمْ بِطَاعَتِهِ أَعَزَّ النَّاسِ، فَمَهْمَا الْتَمَسْتُمُ الْعِزَّ فِي غَيْرِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ أَذَلَّكُمُ اللهُ»(١).

هِيَ ضَرْبَةٌ لَازِبٍ، وَهُوَ قَدَرٌ مَحْتُومٌ، مَنِ الْتَمَسَ الْعِزَّ فِي مَوَاطِنِ الذُّلِّ فَلَا بُدَّ أَنْ يُذَلَّ.(*).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ

---

(١) أَخْرَجَهُ ابن المبارك في «الزُّهْد» (رَقْم ٥٨٤)، وابْن أَبِي شَيْبَةَ في «الْمُصَنَّف» (رَقْم ٣٣٨٤٧ و٣٤٤٤٤)، وهناد بن السري في «الزُّهْد» (٢/ ٤١٧، رَقْم ٨١٧)، وأبو داود في «الزُّهْد» (رَقْم ٦٦)، وابْن أَبِي الدُّنْيَا في «الزُّهْد» (رَقْم ١١٧)، والحاكم (١/ ٦٢، رَقْم ٢٠٨) (٣/ ٨٢، رَقْم ٤٤٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤٧، ترجمة عمر بن الخطاب: ٢)، والْبَيْهَقِيّ في «شُعَب الْإِيمَانِ» (١٠/ رَقْم ٧٨٤٧)، بِإِسْنَاد صحيح، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَىٰ الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَأَتَوْا عَلَىٰ مَخَاضَةٍ وَعُمَرُ عَلَىٰ نَاقَةٍ لَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَىٰ عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا، تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَىٰ عَاتِقِكَ، وَتَاخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ.

فَقَالَ عُمَرُ: «أَوَّهْ لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتُهُ نَكَالًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللهُ».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «شُرُوطُ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ» - الْجُمُعَةُ ٦ مِنْ جُمَادَىٰ الثَّانِي ١٤٢٥هـ/ ٢٣-٧-٢٠٠٤م.

تُوزَنُوا، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا؛ أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ، يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ.

وَاللهُ تَعَالَىٰ يَتَوَلَّاكَمْ وَيَرْعَاكَمْ، وَيَغْفِرُ لِي وَلَكَمْ مَا قَدَّمْنَا وَمَا أَخَّرْنَا، وَمَا أَسْرَرْنَا وَمَا أَعْلَنَّا، وَمَا هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا، وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، وَسِتِّيرُ الْعُيُوبِ.

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ/ ٥-١٠-٢٠١٢م، بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ.

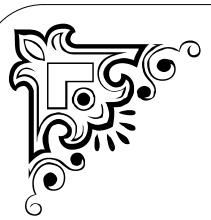

الفِهْرِسُ

مُقَدِّمَةٌ ٣

تَزْكِيَةُ النَّفْسِ سَبِيلُ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاحِ ٤

* بَعْضُ وَسَائِلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ ٥

* أَعْظَمُ طَرِيقٍ إِلَىٰ تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ: تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ ٦

* مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ: مُحَاسَبَتُهَا ٧

وَقْفَةٌ مَعَ النَّفْسِ فِي غَمْرَةِ الْفِتَنِ الْحَالَّةِ ٩

سَعَادَةُ الْمُسْلِمِ فِي التَّوَازُنِ بَيْنَ قُوَّتَيْهِ الْعَمَلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ ١١

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ دَوَاءُ الْقَلْبِ الْمَرِيضِ وَالنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ١٣

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ قَبْلَ الْعَمَلِ وَبَعْدَ الْعَمَلِ ١٨

* النَّوْعُ الْأَوَّلُ: مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ قَبْلَ الْعَمَلِ ١٨

* النَّوْعُ الثَّانِي: مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ بَعْدَ الْعَمَلِ ٢١

* حَاسِبْ نَفْسَكَ وَتَعَلَّمِ الْحِكْمَةَ مِنَ الضَّرِيرِ!! ٢٢

* أَضَرُّ شَيْءٍ عَلَىٰ الْعَبْدِ تَرْكُ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ وَالِاسْتِهَانَةِ ٢٢

كَيْفَ نُحَاسِبُ أَنْفُسَنَا؟ ٢٤

وُجُوبُ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ ٢٨

احْذَرْ الِاسْتِهَانَةَ؛ فَبِهَا الْهَلَاكُ!! ٢٩

ثَمَرَاتُ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، وَصُوَرٌ مِنْ مُحَاسَبَةِ السَّلَفِ أَنْفُسَهُمْ ٣٢

تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ!! ٤٠

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ وَتَغْيِيرُهَا بِدَايَةُ طَرِيقِ إِصْلَاحِ الْأُمَّةِ ٤٤

* حَاسِبْ نَفْسَكَ! هَلْ خَلَا مَجْلِسٌ لَكَ مِنْ غِيبَةٍ؟!! ٤٦

* أَمْرَاضُ الْأُمَّةِ وَعَجْزُهَا وَذُلُّهَا بِسَبَبِ ذُنُوبِ أَبْنَائِهَا!! ٤٧

الْفِهْرِسُ ٥٥